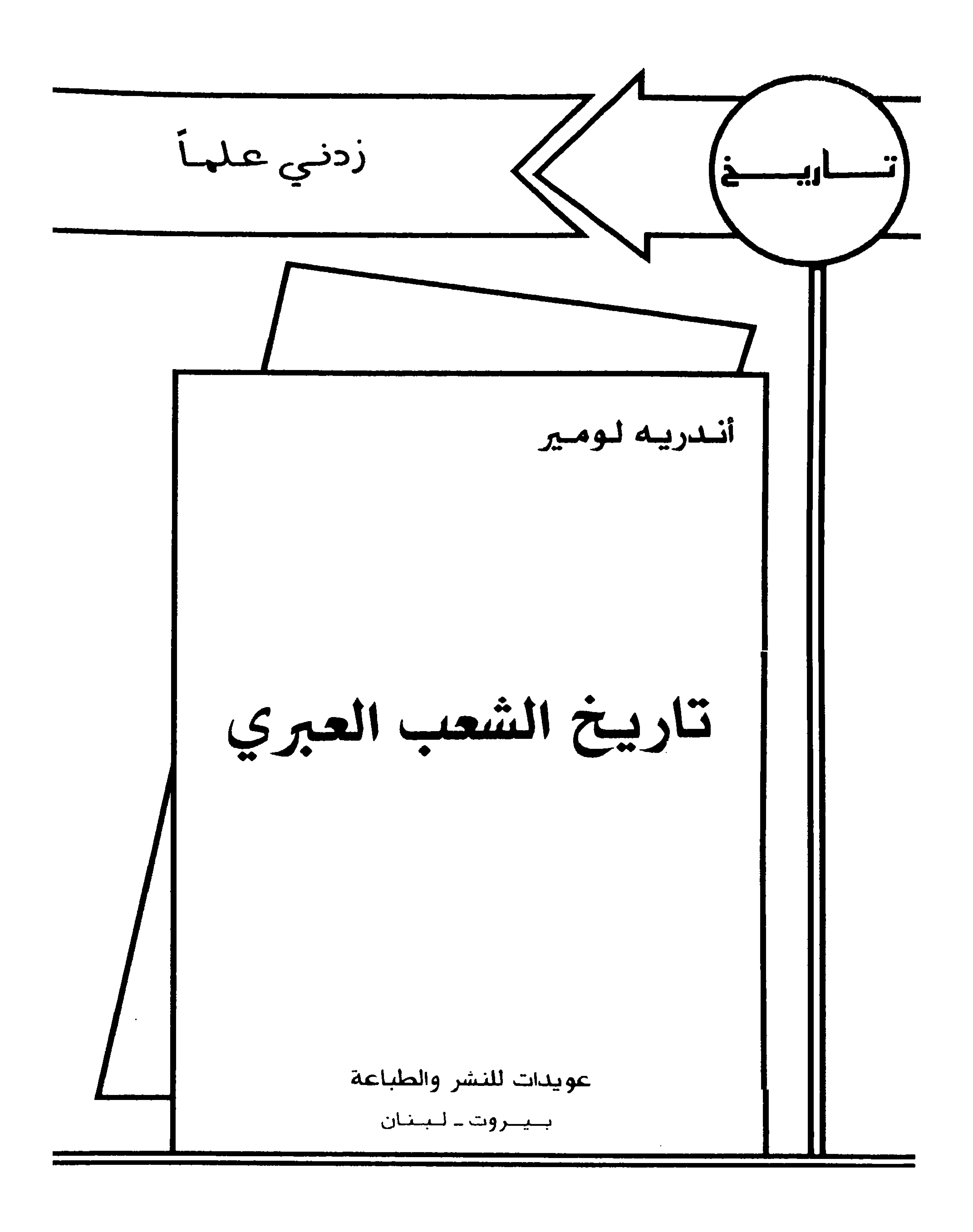

تـــاريـــخ
زدني علماً
أنـدريـه لـومـير
تاريخ الشعب العبري
عويدات للنشر والطباعة
بـيـروت ـ لـبـنـان

تاريخ الشعب العبري

أنـدريـه لـومـير

تاريخ الشعب العبري

تعريب

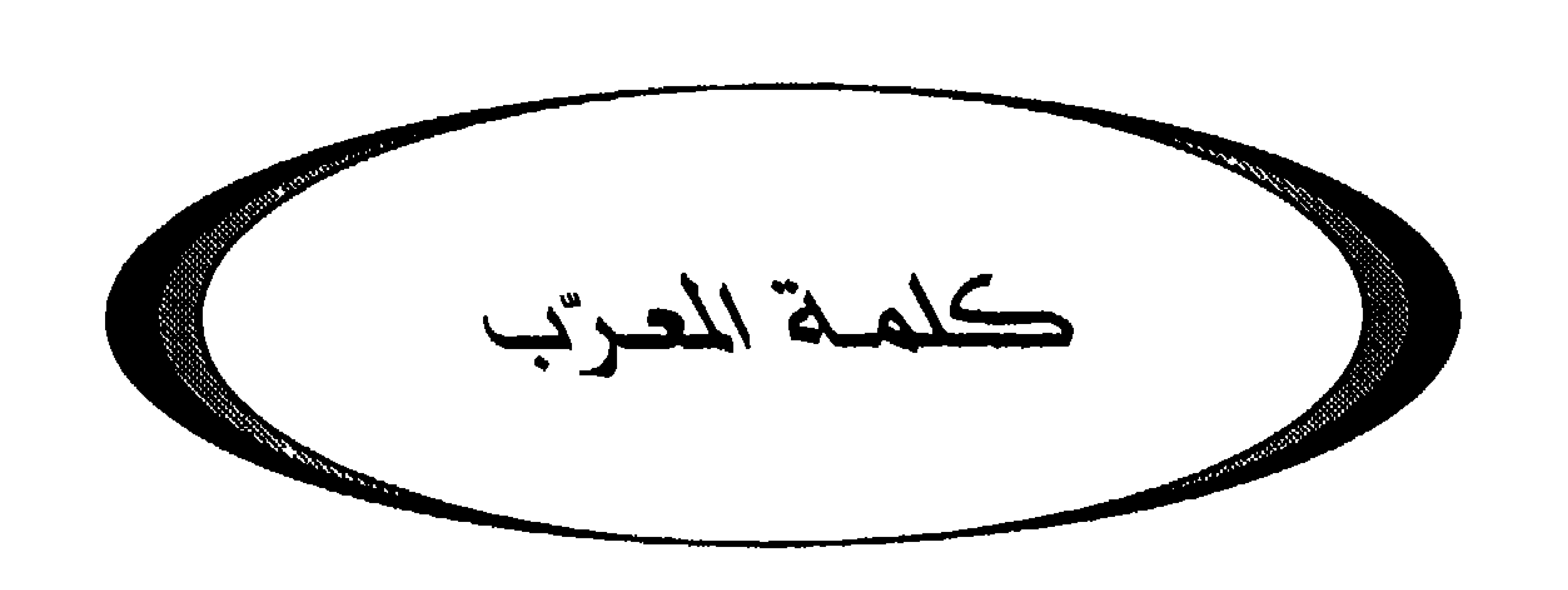
أنطوان إ. الهاشم

عويدات للنشر والطباعة
بيروت ـ لبنان

ويشمل ، كمرحلة ثانية ، الكتب التالية :

1 ــ إشارات ، رموز وأساطير/ لوك بنوا
2 ــ اضطرابات اللغة/ ديدييه پورو
3 ــ فلسفة الفن/ جان لاكوست
4 ــ تاريخ الشعب العبري/ أندريه لومير
5 ــ علم النفس المدرسي/ هوغيت كاغلار
6 ــ النظريات التربوية الحديثة/ جان بول رزڤبر
7 ــ المراهقة والإكتئاب/ هنري شابرول
8 ــ نمو الطفل/ ليليان موري
9 ــ الإجهاد ــ أسبابه وعلاجه/ جان بنجمان ستورا
10ــ بناء علم الاجتماع/ جان ميشال برتيلو
11ــ مهنة المؤرخ/ غي تويلييه وجان تولار
12ــ فلسفة القيم/ جان بول رزڤبر
13 ــ التربية المقارنة/ هانك فان دايل
14 ــ علم النفس الجديد/ أليكس موكيالي
15 ــ تاريخ جهنم/ جورج مينوا
16 ــ الفكر الأخلاقي المعاصر/ جاكلين روس

الطبعة الأولى 1999



تندرج ترجمة هذا الكتاب تحت شعارين كلاهما كافٍ للنهوض بهذا العمل؛ الشعار الأول: اطلب العلم ولو في الصين، والشعار الثاني: أعرف عدوك، مع العلم ان بعض العرب غامروا بإحلال تعبير مغالٍ في التودد محل كلمة عدو واعتبروا أنفسهم من بني عمون... والحقيقة هي أن المعرفة غاية بحد ذاتها فلا تؤَوَّل ولا تُلوَّن ولا تسخر لأهداف أنانية أو نفعية.

وقد قررت دار عويدات للنشر، إنطلاقاً من هذه القناعة وغيرة منها على إغناء القارىء العربي بالعلم وتزويده المعرفة، أن تخوض هذا الغمار غير هيَّابة.

يتحدث هذا الكتاب عن الشعب العبراني منذ بدء تاريخه حتى السنة السبعين للميلاد، مروراً بجميع مراحل الحكم التي عرفها الشعب اليهودي والنماذج التي عرفها؛ من عهد موسى فيشوع بن نون إلى عهد القضاة فعصر الملوك بما فيه العهد الذهبي، عصر داود وسليمان فعهد الإنقسام فالضعف فالحروب الأهلية فالسبي فتهديم الهيكل للمرة الثانية سنة 70م. فزوال الكيان.

وقد ألَّم المؤلف بذكر الشعوب التي كانت على علاقة قرابة أو صداقة أو جوار أو عداء مع الشعب العبراني كالفراعنة والفنيقيين والمؤابيين والعمونيين والحثيين والبابليين والأشوريين والآراميين والكنعانيين واليونان والرومان؛ وذلك ما يحتاج إليه تدوين التاريخ العبري.

وكان الكتاب المقدس ـ العهد القديم بما له من حرمة وتقدير لدى الديانات السماوية، المصدر الأساسي الذي استند إليه المؤرخ، وقد استشهد بكتاب المؤرخ

المشهور فلافيوس يوسف وبعض المدونات القديمة من فرعونية وبابلية وغيرها... متخذاً في سرده للأحداث جانب الدقة والحذر غير منقاد إلى غريزة الحماسة لا سلباً ولا إيجاباً... فجاء كتابه هذا مرجعاً يمكن الركون إليه وقراءته باطمئنان.

أرجو عزيزي القارىء أن تجد فيه مادة دسمة للتثقف والإطلاع فليس في العلم المجرد حرام أو حلال.

أنطوان إ. الهاشم

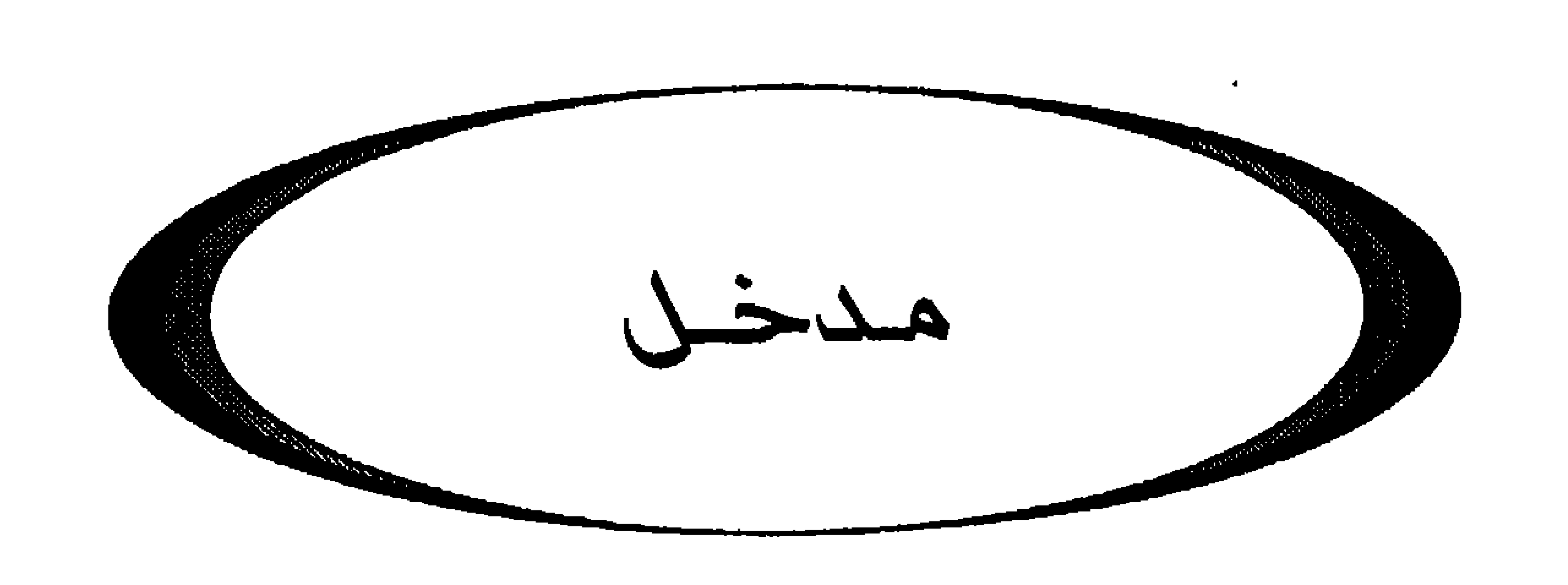
ملاحظة: تقرأ مراجع الكتاب المقدس على الشكل التالي: على سبيل المثال:

ـ (مكابيين أول 14، 41 ـ 47) تقرأ:

سفر مكابيين الأول، الفصل الرابع عشر، الآيات 41 إلى 47).

ـ (مكابيين أول 14، 4...) تقرأ:

سفرالمكابيين الأول، الفصل الرابع عشر، الآية 4 وما بعدها...



مدخل

يشكل تاريخ شعب من الشعوب مجموعة تكون على درجة من التعقيد والتنوُّع بحيث لا يستطيع المؤرخ أن يعبِّر عن كل ما فيها من غنى، ويتوقف عمله بالأحرى على إبراز محاوره الأساسية التي تكشف عن سِماته العميقة. ومن الأهمية بمكان، بعد التحدث عن تسلسل القادة والحكومات، أن يتحدث عن المؤسسات السياسية والمشاكل الاقتصادية وعن الثقافة الخاصة بهذا الشعب. وهذا ما سنجهد في القيام به بقدر ما تسمح به لنا المصادر.

يظل كتاب التوراة بأسفاره الإثنين والعشرين المصدر الأساسي لتاريخ الشعب العبري. وسنأخذ في الحسبان أيضاً، بالنسبة إلى العصور القديمة، المعطيات الأثرية والكتابات الساميَّة والأكادية والمصرية في شمالي ـ غربي البلاد. يلجأ المؤرخون التقليديون، منذ العصر الفارسي، إلى وثائق لا يستهان بها. وباستطاعتنا أن نضم إليها، فيما يخص المرحلة الأحدث عهداً، أعمال المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسف (وخاصة فيما يخص العهود اليهودية القديمة والحرب اليهودية) وأعمال فيلون الإسكندري والكتابات المنحولة والنقوش المزيفة؛ كما أننا نضيف إليها نصوص قمران والعهد الجديد والتلمود.

إن النقد التاريخي لهذه المصادر هو من الصعوبة بمكان وخاصة بالنسبة إلى العصور القديمة. فيجب علينا أن نراعي في ذلك النوع الأدبي وتاريخ تحرير كل نص من النصوص.

وليست النتيجة دائماً مضمونة: ففي كثير من الحالات لا تتيح لنا الوثيقة الوصول إلاَّ إلى احتمالات متفاوتة سنشير إليها.

إن عدم الاطمئنان إلى البحث التاريخي هو في غاية الوضوح فيما يخص تأريخ بعض الحقب التاريخية. فبالنسبة إلى مرحلة الأصول التاريخية والاتحاد الإسرائيلي تظل كل محاولة تأريخية تقريبية وافتراضية. أما انطلاقاً من عهد الملكية فيمكن الاعتماد على معلومات فترة الحكم والتزامن التاريخي لكتب الملوك. لكن هذه المعطيات غالباً ما تكون مضطربة مفككة. وبالرغم من الاستشهاد بالحوليات الأشورية والتأريخات البابلية التي تتيح تحديد بعض التواريخ يظل الكثير من الأنظمة التأريخية ممكنة مع فارق بعض السنين؛ وسنلحق تواريخ هذه الحقبة، في أكثر الأحيان، بكلمة تقريباً أو ما بمعناها.

الفصل الأول

الأصـــول

ليست أصول الشعب العبراني متوفِّرة للمؤرخ بشكل مباشر: وليس ثمة من شاهد خارجي يحدِّثنا عن إسرائيل قبل ذكرها الوارد على مسلة من العام الخامس لحكم الفرعون مرنپتاح (حوالي سنة 1207ق.م.) والنص الأول الذي يشير إلى أصول إسرائيل على صورة سلسلة نسب البطاركة إبراهيم وإسحق ويعقوب ـ إسرائيل[1]، يعود، على الأرجح، إلى عهد المملكة الموحدة أيام داود وسليمان أو إلى عهد متأخر؛ وحلقة يعقوب ـ إسرائيل وحدها قد تكون عرفت كتابة قبل ملكية داود. هذا التحديد المتأخر للتقاليد البطريركية يشير إلى الدور الهام للتقليد الشفهي في صياغتها وارتباطها بنوع أدبي «أسطوري» يتحدث عن الأصول، وهو نوع شائع عند كل الشعوب، ولا يستطيع المؤرخ أن يعتمد عليه إلاَّ بكثير من الحذر وروح النقد: دراسة النص التاريخي، نقل تاريخ البطل الرمز إلى تاريخ الجماعة، استخدام النقد الأدبي لتمييز التقاليد الضاربة في القدم وتحليل المعطيات الطوبوغرافية التي تكون عادة ثابتة على الأقل في هذه المنطقة.

إن بعض المؤرخين المحدثين الذين كتبوا تاريخ إسرائيل القديمة. أعادوا «عهد البطاركة» إلى أيام الحركة الأمورية حوالى القرن التاسع عشر ق.م. ويتعرض هذا الطرح اليوم إلى كثير من المناقشة: إن تعيين هذا التاريخ في عصر البرونز الحديث الثاني ب (القرن الثالث عشر ق.م.) أو في عصر الحديد الأول

(1) جاء في التوراة أن الله أطلق على يعقوب لقب إسرائيل (أي أسير الله أو عبد الله) وإليه نسب الشعب اليهودي ـ الإسرائيلي. ومن هنا جاءت تسمية دولة إسرائيل. جاء في سفر التكوين 29: قال (الله) لا يكون إسمك يعقوب فيما بعد بل إسرائيل...(2).

(القرنين الثاني عشر ـ الحادي عشر ق.م.) بالنسبة إلى الجماعة المنتسبة إلى إبراهيم وإسحق يبدو أكثر معقولية.

إن في حوزتنا، بالنسبة إلى فلسطين في فجر هذه المرحلة، شاهداً أساسياً هو رسائل تل العمارنة وهي مراسلات حُرِّرت باللغة الأكادية بين أمراء أو أسياد سوريا ـ فلسطين والفراعنة أمينوفيس الثالث وأمينوفيس الرابع، أخناتون وسْمينقرع وتوت عنخ آمون حوالي منتصف القرن الرابع عشر. كانت فلسطين وجنوبي سوريا في هذه الحقبة تحت الوصاية المصرية وكان مُليكات هذه المنطقة أتباعاً للفرعون فكانوا يتقاتلون فيما بينهم محاولاً كل واحد منهم أن يوسِّع حدود مملكته. وقد وصلتنا أسماء ملوك عدة حواضر (مدن ـ دولة) في فلسطين وهم: لابايو في شكيم وعبدي هبة في أورشليم وملكيلو في جازر. وكان هؤلاء الملوك، طلباً للمعونة، يتحالفون مع الحاپيرو (أو الهاپيرو).

الهاپيرو (أپر بالأبجدية الأوغارتية وعابيرو بالمصرية)، كان هؤلاء على ما يبدو منتشرين حينئذٍ على أطراف الهلال الخصيب كشعب غير مستقر وفوضوي يقوم بخدمة من يدفع له أكثر سواء كأيدٍ عاملة في الأعمال المدنية الكبرى أو كمرتزقة في الجيش. إن التعبير التوراتي «عبري» كالتعبير «عابيرو» المستخدم في النصوص، التي تعود إلى المرحلة ما قبل الملكية، يعني أحياناً عرقاً وأحياناً تسمية اجتماعية. ومن المستحيل عدم تقريب التعبيرين أحدهما من الآخر. ويبدو أن أصول الشعب العبري توضع في الإطار العام لحركة الهاپيرو ـ العابيرو في النصف الثاني من الألف الثاني ق.م.

والواقع أن التقاليد التوراتية تقدم البطاركة كغرباء بالنسبة إلى الشعب المحلي (سفر التكوين 23، 4)، كنصف رحَّل على طريق الاستقرار يقودون قطعانهم وينصبون خيامهم حيث يجدون مرعى لقطيعهم الصغير. ويقيمون غالباً قرب المدن التي يزورون معابدها الخارجية. وكثيراً ما كانوا يجهدون في إقامة علاقات طيبة مع السلطات المحلية، ولم يكن ذلك يعفيهم أحياناً من استخدام الحيلة والعنف. وكانت هذه الجماعات لا تختلط بالشعوب المحلية كما كانت ترفض الزواج من الفتيات الكنعانيات (تكوين 24، 3). وكانت الخلية الأساسية لحياتهم الاجتماعية والاقتصادية هي العائلة الموسعة (بيت الأب) أو العشيرة التي تعيش،

إلى حد ما، في نظام التقاء ذاتي، وكانت هذه العائلات البطريركية تصر على المحافظة على هويتها وتقاليدها الخاصة وخاصةً عبادة إله آبائها.

ويتيح لنا تحليل التقاليد التوراتية أن نميز، في بداية الاتحاد الإسرائيلي، أربع فئات أساسية تمتُّ بصلة إلى البطاركة إبراهيم وإسحق ويعقوب وإسرائيل. الفئتان الأوليان هما أصل «بيت يهوذا» والفئتان الأخيرتان هما في أصل «بيت إسرائيل».

I ـ إبراهيم

يبدو أن الجماعة التي تنتسب إلى البطريرك إبراهيم قد استوطنت في جبل يهوذا قرب حبرون. والدليل على تحديد هذا المكان هو أن المعبد الأساسي لهذه الجماعة كان موجوداً عند «بلوط مْمرا» غير بعيد عن حبرون (تكوين، 13، 18؛ 14، 13؛ 18، 1)، وفي مكفيلا قرب مْمرا مكان المدفن التقليدي للجماعة التي تنتمي إلى إبراهيم (تك 23، 17. 19؛ 25، 9). وكانت علاقات هذه الجماعة مع الإسماعيليين في الجنوب (Négeb =؟ النقب) على شيء من التوتر (تك 16، 7ـ15). في حين أن علاقاتهم بالمؤابين والعمونيين ما وراء البحر الميت الذين يعتبرون ذرية لوط ابن أخي إبراهيم (تك 19، 36ـ38) كان يسودها الوئام وكذلك علاقاتهم «ببني حِثُّ» (تك 23، 3) في كريات أربع (=حبرون). ومن المرجح أنه بسبب قيام التوحيد الأول للنظام البطريركي في حبرون، عاصمة مملكة داود على مدى سبع سنوات، قبل سنة 1000 بقليل (ملوك 2. 1ـ4؛ 3، 1ـ5)، أعطي المكان الأول للبطريرك إبراهيم الذي يمثل الجماعات العبرية في منطقة حبرون.

II ـ إسحق

ويبدو أن الجماعة العبرانية التي تنتسب إلى إسحق قد استقرت في الجنوب (Négeb) حول بئر السبع (أو بئر الشَّبَع) (تك 26، 26ـ33)، في أرض سبط سمعان. وكانت علاقات هذه العشائر العبرانية تارة متوترة وطوراً مسالمة مع دولة جيرار وملكها أبيملَك، وكان خط النزاع الأساسي هو السيطرة على الآبار.

وعندما صعد داود من صقلاج إلى حبرون وأصبح ملك يهوذا ضم أبناء سمعان إلى أبناء يهوذا، ما يفسر بقرابة جَدَّيهم، واعتبر إسحق الابن الوحيد لإبراهيم.

III ـ يعقوب

إن سلالة البطريرك يعقوب التي كانت في البداية مستقلة عن سلالة إبراهيم وإسحق، لم تنضم إليها إلاّ بعد أن أصبح داود ملكاً على إسرائيل ويهوذا (ملوك ثانٍ، 5). وهي تتألف من أساطير تتصل في الأصل بالجماعات التي تشكل الاتحاد ثم المملكة الإسرائيلية في الشمال. وأقدم الروايات عن سلالة يعقوب تضع أصل هذه الجماعة التي تنتمي إلى هذا البطريرك في بلاد ما بين النهرين العليا (آدام ـ نهارييم)، وبكلام أدق في أعلى وادي البلح (Balih) حوالي مدن حرّان وسروج وناهور وتارح. ومن المرجح أن يكون بنو يعقوب الذين من أصل آرامي قد غادروا منطقة حرّان بعد سقوط الدولة الميتانية على أثر الهجوم الأشوري بقيادة هانيجلبات خلال حكم خدد نيراري أو شلمناصر الأول في حدود السنة 1275. ومن المحتمل أن تكون هذه الجماعة قد دخلت أرض كنعان مجتازة الأردن بين وادي يَبُوق ووادي فراح (Far'ah)، واستقرت في المنطقة الواقعة إلى شمال وشمال شرقي شكيم. وكان بنو يعقوب يترددون إلى معبد واقع قبالة شكيم حيث ضربوا خيامهم واشتروا حقلاً من «بني حُمور» زعماء شكيم (تك 33، 19). وكانت علاقاتهم بأهل شكيم متوترة أكثر الأحيان (تك 34)، وامتنع بنو يعقوب عن أي انصهار ببني شكيم ورفضوا تزويج بناتهم من هؤلاء.

IV ـ إسرائيل ـ يوسف

واتحد وجه البطريرك يعقوب بوجه إسرائيل (تك 32، 29) على أثر معاهدة بني إسرائيل مع بني يعقوب. وكانت جماعة بني إسرائيل متميزة في البداية عن بني يعقوب. إن اسم «إسرائيل» مشتق على الأرجح، استناداً إلى المعطيات الطوبوغرافية التاريخية من عشيرة تسمى أيضاً «أسرييل» استوطنت جبل إفرائيم في مكان لا يبعد كثيراً عن معبد شيلو. والعشيرة والمعبد ينتميان إلى الجماعة التي عاشت محنة الخروج من مصر بقيادة موسى ثم يشوع. وكان جبل إفرائيم، في إحدى الفترات التاريخية، منظماً بطريقة يتمتع فيها باستقلال ذاتي ويعرف «ببيت

يوسف» (قضاة 1، 22)، ويوسف هذا هو الذي اعتبر الجد الرمز لهذه الجماعة التي لعبت دوراً مركزياً في تشكيل الاتحاد الإسرائيلي.

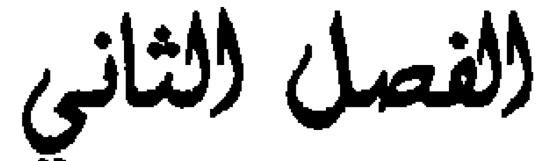
أقامت جماعة آل يوسف/آل إسرائيل العبرانية بعض الوقت في مصر في بلاد غوشن (Goshen)، على الحدود الشرقية لدلتا النيل؛ وسخرت بنوع خاص في أشغال بناء مدينتي الخزن المصريتين فيتوم ورعمسيس (خروج 1، 11). واستطاعت هذه الجماعة بقيادة موسى، وهو عبري تلقى ثقافة مصرية، أن تغادر مصر في ظل حكم الفرعون رعمسيس الثاني حوالي سنة 1270ـ1250ق.م. وقد ظلوا بعض الوقت في برية قادش وفاران على الحدود الجنوبية (النقب؟) وسينا (عدد 13، 26؛ 20، 1...)، الأمر الذي أتاح لموسى أن يقنع هذه الجماعة بأسس خصوصية دينية يهوية (نسبة إلى يهوى). وسيكون يهوى إلههم الوحيد ولن يجعلوا له أنصاباً منحوتة.

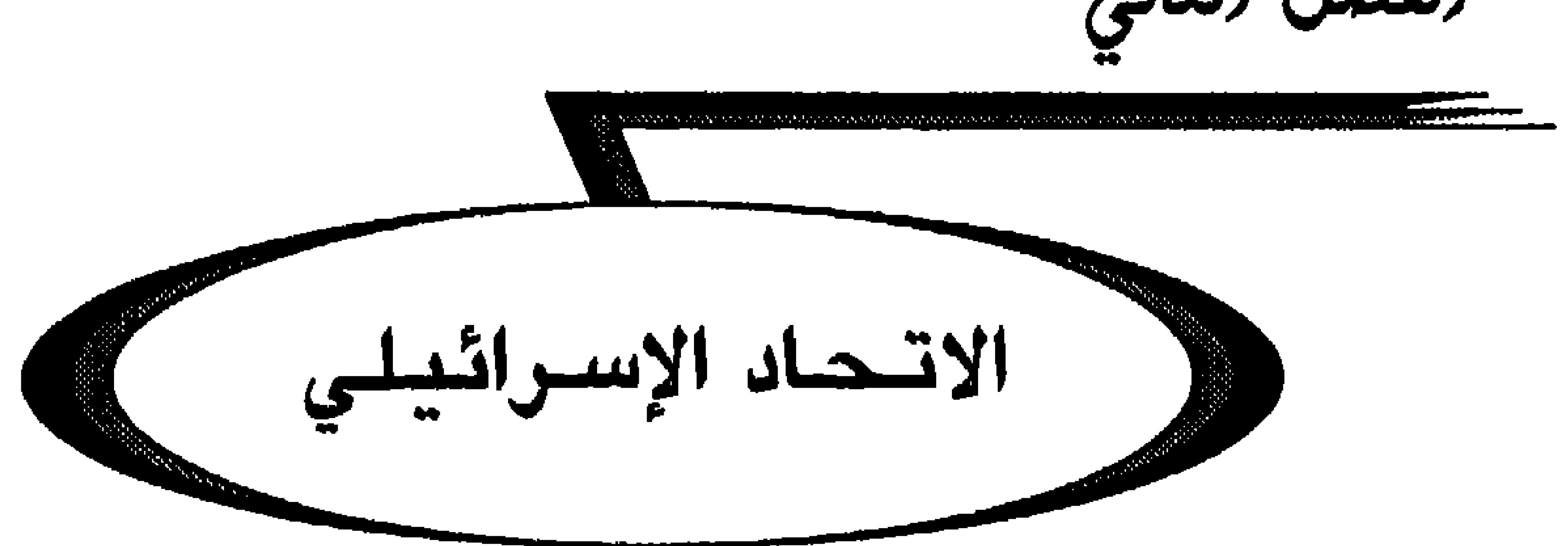
طاف العبرانيون في أرض مؤاب وتغلبوا على سيحون ملك حشبون في ياهاص (عدد 21، 23) وملكوا أرضه شمالي أرنون في شرقي الأردن. ومات موسى في «أرض مؤاب» قرب جبل نبو (تثنية 32، 39؛ 34، 1 ـ 8) في أرض ضُمّت فيما بعد إلى روبين وجاد، وخلفه في القيادة يشوع بن نون (تثنية 34، 1ـ9).

وبقيادة يشوع بن نون اجتاز بنو إسرائيل نهر الأردن بالقرب من الجلجال التي لا تبعد كثيراً عن أريحا (يشوع 3، 17؛ 4، 20) ثم دخلوا الضفة الغربية لنهر الأردن واحتلوا أريحا (يشوع 6) وبيت إيل (قضاة 1، 22ـ26). وعند اقترابهم من مدن جبعون الأربع وهي جبعون وكفيره وبئروت وقرية يعاريم، اقترح أعيان هذه المدن عليهم أن يقطعوا لهم عهداً فوافق يشوع على ذلك مانحاً إياهم على، ما يبدو، وضعاً إقطاعياً (يشوع 9).

وهدد هذا الحلف بين الغابانوئيين والعبرانيين، مباشرة، مدينة أورشليم التي كان مدخلها من عقبة بيت حورون بين أيدي الحلفاء. وهب (أدونيصادق؟) ملك أورشليم يطلب محالفة الكنعانيين الذين حاولوا بمساعدة المصريين أن يعيدوا فتح الطريق نحو أورشليم على أثر معركة حول عقبة بيت حورون (يشوع 10). وفي هذه الحقبة على الأرجح وربما بعد هذه المعركة (حوالي 1210) ورد ذكر إسرائيل

على مسلة الفرعون مرنپتاح وتمثيل المواجهة المصرية الإسراتيلية على نقوش مرنپتاح في الكرنك وكانت الذكرى والتمثيل مقترنين باحتلال جازر على حوالي 15 كلم غربي بيت حورون. ومهما يكن من أمر هذه المواجهة المصرية ـ الكنعانية ـ الإسرائيلية لقد استدارت العشائر الإسرائيلية نحو الشمال واحتلت جبل إفراييم أي منطقة الجبال والتلال الواقعة بين أورشليم وشكيم.





اصطدم بنو إسرائيل، أثناء توسعهم نحو الشمال، بجماعة بني يعقوب المقيمين إلى الشمال والشمال الشرقي من شكيم، وأدى هذا التصادم إلى إقامة عهد بينهم هو «عهد شكيم» الذي تسمع له أصداء كثيرة في التوراة وخاصة في سفر يشوع ـ24: ويبدو أن عهد شكيم كان، على خلاف الاتفاق مع الغباؤونيين، معاهدة بين جماعتين من العشائر أو الأسباط على قدم المساواة إلى حد ما، إذ احتفظت كل عشيرة بأرضها واستقلاليتها الذاتية. وأدى هذا العهد إلى اتحاد بقيادة بني إسرائيل: اعتبر يشوع أن يهوى هو الإله الوحيد لهذا الاتحاد بعد أن استبعد كل إله «غريب». ربما كان هذا الإله الغريب فاحاد «إله آباء بني يعقوب» (يشوع 24، 23؛ تكوين 35، 2).

وصحب هذا التوحيد الديني، أساس الاتحاد، عدد قليل من القواعد (أو النواهي) الأساسية. تشمل هذه القواعد العبادة العامة كما تشمل الحياة الاجتماعية وثم نشرها على الأرجح بأمر من يشوع (يشوع 24، 25). على شكل بدائي للوصايا العشر التي يمكن اختصارها بما يلي:

«أنا هو الرب (يهوى) إلهك

لا تسجد أمام إله غريب

لا تضع لي تمثالاً منحوتاً

لا تتلفظ باسمي بالباطل

لا تدنس أيام السبت

لا تلعن أباك وأمك

لا تقترف جريمة قتل ضد قريبك

لا ترتكب الزنا مع امرأة قريبك

لا تختطف أحداً من أقربائك

لا تحاول احتلال بيت قريبك».

كانت هذه الوصايا العشر الأساسية تشكل، إلى حد ما، دستور الاتحاد الإسرائيلي الذي دعي أعضاؤه باسم «القريب». وكانت الوحدة، قبل كل شيء، وحدة دينية: الاعتراف بيهوى كإله وحيد واحترام أعياده (أيام السبت). ولا يلمح إلى أية بنية أو مؤسسة اتحادية. وسهل هذا الغياب للبنية المركزية انضمام أعضاء جدد إلى الاتحاد: كان يكفي، على أيٍّ من مستويات المجتمع (عائلة، عشيرة، سبط)، أن تسهر السلطات التقليدية («الشيوخ») على احترام قواعد الحياة الاجتماعية التي ذكرتها نصوص الوصايا العشر.

وبعد مرحلة الاستقرار، كانت كل عائلة تعيش عادة في «بيتها المؤلف من أربع غرف» حول فناء مع أهرائه، وهو بناء خاص بذلك العهد قدره علم الآثار الحديث حق قدره. وكانت كل عشيرة، تقريباً، تسكن في قرية وتضم عدة عائلات تعيش عملياً ضمن نظام اكتفاء ذاتي اقتصادياً واجتماعياً (وكان التزاوج يحدث داخل العشيرة). وكانت تتشكل تجمعات أكثر عدداً تنمّي شعور الانتماء إلى الاتحاد وذلك انطلاقاً من مواسم الحج إلى المعابد الأساسية وخاصة إلى شيلو. وكانت تتنظم، في مناسبات قليلة ولدرء خطر خارجي أو داخلي مجموعات كثيرة أو عشائر أو أسباط بإمرة قائد واحد يتقدم الرجال القادرين على حمل السلاح. ويذكر سفر القضاة الكثير من هؤلاء القادة المدعوين «قضاة» الذين لعبوا دوراً خطيراً على رأس سبط أو جماعة من سبط لمواجهة خطر خارجي.

I ـ أسباط الشمال

وبموازاة دخول بني إسرائيل إلى الضفة الغربية من الأردن على أثر انتصارهم على الكنعانيين والمصريين عند عقبة بيت حورون، انقض فريقان

عبرانيان من الجليل، هما نفتالي وزابولون، على معسكر يابين ملك الكنعانيين في حاصور عند مياه ميروم بغتة (يشوع 11)، وبعد أن عرقبوا خيول أعدائهم وأحرقوا مركباتهم دخلوا حاصور وأضرموا النار في المدينة. إن تأريخ تدمير حاصور يتيح تحديد زمن معركة مياه ميروم في النصف الثاني من القرن الثالث عشر (ق.م.). ومن غير أن ننسب هذا التدمير إلى يشوع (بالرغم مما جاء في يشوع 11) فإن دخول بني إسرائيل إلى فلسطين خلق على الأرجح صدمة نفسية كافية لكي تجرؤ قبيلتا زبولون ونفتالي على مهاجمة جيش كنعاني (قضاة 5، 18).

وبعد وقت قصير على الأرجح خلال القرن الثاني عشر هدَّد هذين السبطين وصول سيسْرا من حروشت الأمم. وقد يكون سيسرا هذا أحد قادة «شعوب البحر». وأمام هذا الخطر الداهم تحالف ياراق من قادش نفتالي، ممثل العبرانيين في الجليل، مع دبورة «النبية» في جبل إفرائيم (قضاة 4، 2ـ10)، ممثلة الاتحاد الإسرائيلي، وتغلب على سيسرا بالقرب من نهر قيشون (أو مياه مَجَدُو) (قضاة 5، 19ـ21). واحتفلت إسرائيل بهذا الانتصار العظيم «بنشيد دبورة» الشهير (قضاة 5) الذي يوضح إسهام قبائل إفرائيم وبنيامين وماكير وزبولون ونفتالي ويسّاكر بينما ظلت عشائر روبين وجلعاد ودان وآشير الحدودية خارج هذه المعركة الأمر الذي يدل بوضوح على تعلق الفئات العبرانية في الجليل بالاتحاد الإسرائيلي. ويفترض نشيد دبورة أن قبيلة دان استوطنت في أعلى وادي الأردن حول مدينة لاييش القديمة (أو لاشم) ويبدو أن هذه القبيلة قد استقرت شمالي شفيلاح (Shephélah). وبضغط من الفلسطينيين، على الأرجح، في النصف الأول من القرن الثاني عشر، غادر بعض أفراد عشائر دان وإشتاؤول ليذهبوا بعيداً بإتجاه الشمال حيث استوطنوا في منطقة أقل تعرضاً للتهديد (يشوع 19، 40ـ48؛ قضاة 18).

II ـ الضفة الغربية الوسطى لنهر الأردن

كان مركز الاتحاد الإسرائيلي في جبل إفرائيم حول معابد شكيم وشيلو وبيت إيل. وتجمعت عشائر هذه المنطقة شيئاً فشيئاً في ثلاث وحدات مستقلة استقلالاً ذاتياً: إفرائيم في الوسط ومنسّى في الشمال وبنيامين في الجنوب.

لم يُذكر منسَّى في نشيد دبورة، ما يعني على الأرجح أن عشائر منسَّى لم تكن قد نظمت بعد في وحدات مستقلة في تلك الحقبة. والظاهر أن تنظيم سبط منسَّى حول عشيرة أبيعازر هو من عمل جدعون الذي سار في مقدمة الحملة على المِدْيَنيين (قضاة 6، 33ـ35). ودارت المعركة على جبهتين: طَرَد الإفرائيميون المِدْيَنيين أولاً خارج الضفة الغربية في معركة عين حرود (قضاة 7، 1ـ22) وقتلوا قائدين من قوادهم هما عوريب وزيبا بعدما سدوا عليهم معابر الأردن (قضاة 7، 22؛ 8، 3)، ثم وعلى أثر غارة أخرى للمدينيين قرب جبل طابور تعقبوهم حتى عبر الأردن وقتلوا اثنين من قادتهم هما زاباح وصَلْمُنَّاع (قضاة 8، 10ـ21). وأثناء هذه الحملة الثانية أخضع جدعون معارضه في فنوئيل وشكُّوت في وادي الأردن الأوسط أي أنه ضم، على الأرجح، أرض ماكير إلى سبط منسَّى. يفسِّر هذا النجاح العسكري المزدوج التيارَ القوي الذي نشأ لمصلحة جدعون لإعلانه ملكاً ولكن هذا رفض أن يؤسس سلالة مالكة (قضاة 8، 22).

تروي التقاليد التوراتية روايتين هامتين من تاريخ العشائر الإسرائيلية «البنيامينية» القاطنة إلى جنوب (أو يمين) جبل إفرائيم (بن يمين=جنوبي)؛ الحرب الإفرائيمية ـ البنيامينية ومقتل ملك مؤاب على يد البنياميين إيهود Ehud. وكانت الرواية التوراتية للحرب الإفرائيمية ـ البنيامينية (قضاة 19ـ21) قد عُدِّلت أكثر من مرة ومن الصعب الإحاطة بالأحداث التاريخية في أساس الرواية الفعلية. ويبدو أنه على أثر جريمة اقترفت في جَبَع تضامن عدد من عشائر الجنوب مع المجرمين بدلاً من أن يسلموهم. وبسبب هذا الرفض، أكدت هذه العشائر على استقلاليتها الذاتية بالنسبة إلى سائر العشائر الإسرائيلية في جبل إفرائيم. وبعد حرب أهلية طويلة دحرت العشائر الجنوبية، ولكن الإفرائيميين اعترفوا باستقلالية «البنيامين»؛ ولكن هؤلاء الذين أبعدوا، إلى مدن، عن الاتحاد الإسرائيلي، تمت الموافقة على مشاركتهم من جديد في العيد السنوي في شيلو (قضاة 21، 19ـ24).

تقع قصة حادثة إيهود ضد المؤابيين في حدود العصر الذي حدثت فيه قصة يفتاح، استولى المؤابيون بمساعدة العمونيين على الأرض الواقعة شمالي أرنون وأسفل وادي الأردن. استغل إيهود بن جيرا أحد قادة البنيامينيين مناسبة نقله الجزية ليقتل ملك مؤاب، عجلون. وأعطت هذه الجريمة الإشارة للعشائر البنيامينية فدفعت المؤابيين من الضفة الأخرى للأردن (قضاة 3، 12ـ30).

III ـ أسباط عبر الأردن

يفهم من نشيد دبورة (قضاة 5، 15ـ16) أن سبط روبين لم يشترك في الحرب ضد سيسرا. ولم يُذكر روبين كذلك في الكتب التاريخية. قد يكون هذا الغياب لسبط روبين الذي يلمح إليه سفر تثنية الاشتراع فصل 33 الآية 6، ناشئا عن توسع المؤابيين في شمال أرنون كما تشهد على ذلك قصة إيهود. ستتم السيطرة على أرض روبين في عهد الملك داود وتضم جزئياً إلى قبيلة جاد في أوج اتساعها وقد شملت منطقة ما وراء الأردن شمالي أرنون.

لقد لعبت جماعة ماكير دوراً هاماً منذ حرب الاتحاد الإسرائيلي ضد سيسرا (قضاة 3، 14). وكان تحديد إقامتها بدقة موضوع نقاش؛ ويرجح وضعه بين جاد وجلعاد حول محانايم وفنوئيل وسُكُوت في وادي الأردن الأوسط شمالي رافد يبوق. وماكير الذي كان في البداية يتمتع باستقلالية ذاتية انضم إلى سبط منسّى على أثر حملة جدعون الثانية.

والعشائر الإسرائيلية التي استعمرت جبل جلعاد شمالي يبوق (يشوع 17، 14ـ18) لم تشارك في المعركة ضد سيسرا (قضاة 5، 14) ولا في الحرب الإفرائيمية ـ البنيامينية، الأمر الذي كلفهم أعمالاً انتقامية وكان في أصل الروابط الخاصة بين يبوس جلعاد والبنياميين (قضاة 21، 8ـ14 راجع 1 صموئيل 11، 1ـ11). ذكرت استقلالية جلعاد عن الإفرائيميين في تاريخ يفتاح. وكان يفتاح قائد زمرة فاقترح عليه القادة التقليديون في جلعاد والشيوخ أن يكون قائدهم ليتقدمهم إلى حرب العمونيين مهدّداً بلادهم، وأثار انتصار يفتاح والجلعاديين حسد الإفرائيميين، ولكن محاولة التشفّي من جانب هؤلاء فشلت فشلاً مخزياً (قضاة 12، 1ـ17). واحتفظت بلاد جلعاد باستقلالها الذاتي ولم تنضم، على الأرجح، إلى قبيلة منسّى (يشوع 13، 29ـ31) إلاً بعد انتصار جدعون على المِدْيَنيين.

VI ـ أسباط الجنوب

وظلت بعض العشائر الدانيّة حول صَرْعة وإشتاؤول تعيش منصهرة وغالباً تخاصمة مع الفلسطينيين. وانعكس هذا الوضع على أسطورة شمشون التي تمثل

على الأرجح تقليداً محلياً في منطقة بيت شمس (قضاة 13ـ16). وظل الشعب الخليط في هذه المنطقة الحدودية تابعاً للفلسطينيين حتى عصر داود النبي الذي ضمهم إلى «بيت يهوذا».

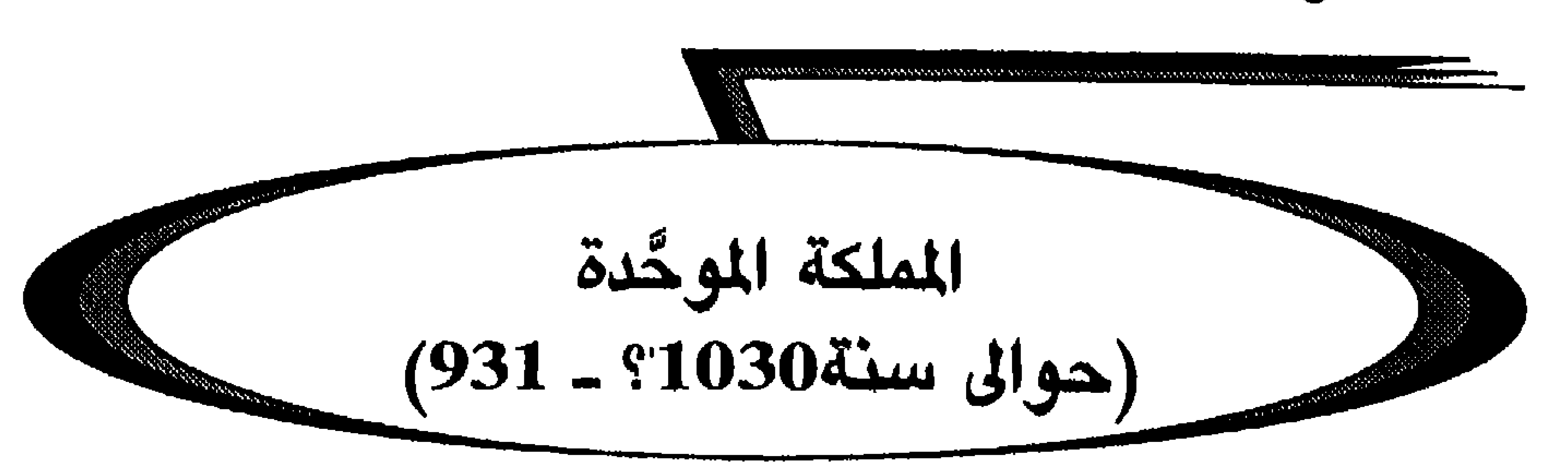
ويهوذا ذاته لم يذكر في نشيد دبورة؛ والظاهر أن الشعب في هذه المنطقة لم يشارك في أية مبادرة عسكرية، للأسباط الإسرائيلية في عهد القضاة. وإن عشائر المنطقة التي كانت مفصولة جغرافياً عن العشائر الإسرائيلية بدولة أورشليم لم تكن على الأرجح منضمة إلى الاتحاد الإسرائيلي. غير أن بعض العشائر العبرانية القادمة من الجنوب حملت معها عبادة يهوى ومهدت هكذا لتقريبها فيما بعد بين «بيت يهوذا» و«بيت إسرائيل».

إن أسطع الأمثلة هو مثل القنزيين. وإن كالب القنزي هو، الذي سيطر على حبرون وفيها بنو عناق (يشوع 14، 13؛ 15 ـ 13)، و«عُتْنيئيلْ بن قناز أخو كالب» هو الذي احتل قرية سِفْر (يشوع 15، 15ـ19). وأكد استيطان العشائر الكالبية في منطقة حبرون ذكرُ «جنوب كالب» (لصموئيل أول 30، 14) و«نابال الكالبي» في منطقة الكرمل ومَعون (صموئيل أول 23، 1ـ3). وظهر عُتْنيئيل أيضاً في سفر القضاة الفصل الثالث الآيات 1ـ11 كمنقذ من يد «كوشان رشعتائيم ملك آرام» ولكن ربما يجب أن تصحح هنا آرام بأدوم. إذا كان القنزيون على علاقة بالأدوميين والتّمانيين والعمالقة (تكوين 36، 11 ـ 15 ـ 42).

وصعدت عشائر قينيّة وادي النخيل (وهو على الأرجح تامار جنوبي البحر الميت). وسكنت «جنوبي قنيت» جنوبي شرقي حبرون حول آراد. اعتبر القينيتيون أقرباء موسى (قضاة 4، 11؛ قضاة 1، 16). وتعني هذه الرواية أن عند الإسرائيليين شعوراً جماعياً دينياً، على الأرجح، مع القينيتيين (قضاة 4، 11ـ22؛ 5، 24؛ راجع صموئيل أول 13، 6).

وشغل اليَرَحْمليون «جنوبي أرض اليرحمليين» (صموئيل أول 27، 10) الواقعة جنوبي جنوب القينيتيين التي هي، على الأرجح، حول تل الملح على الطرف الشرقي لوادي بئر السبع.

الفصل الثالث



المملكة الموحَّدة
(حوالى سنة1030؟ ـ 931)

لم يكن الرابط الهش الذي يجمع بين العشائر والأسباط في الاتحاد الإسرائيلي كافياً في حال الخطر الخارجي: كان يتم تعيين قائد عسكري خِصِّيصاً لقيادة المعركة. وعندما يزول الخطر لم يكن يحتفظ هذا القائد سوى بوظيفة شرفية (قضاة 8، 22ـ27). تداعى هذا المخطط لتاريخ عصر القضاة عندما أدى استمرار الخطر الخارجي إلى دوام الحاجة إلى قائد عسكري. وهكذا انتقلت إسرائيل من مؤسسة «قضاة» و«منقذين» ظرفية إلى تأسيس ملكية دائمة.

I ـ تأسيس الملكية: شاؤل

منذ بدايات الاتحاد الإسرائيلي لم تكن الأسباط الإسرائيلية المختلفة تصطدم إلاَّ بأعداء من وزنها نسبياً مثل: المِدْينيين والعمونيين والمؤابيين أو المدن الكنعانية التي كانوا يهاجمونها على حين غرة. لكن الموقف أصبح مختلفاً عندما اصطدم الاتحاد بالتوسع الفلسطيني.

عرف الفلسطينيون عبر الكتابات المصرية بأنهم أحد «شعوب البحر» الذين حاولوا، مع الجكير (les Tjekker) والشكلش (les Shekelesh) والدنيان (les Denyen) والوشِشْ (les Weshesh)، اقتحام مصر، لكن زحفهم توقف عند أبواب مصر بعد معركتين برِّية وبحرية في السنة الثامنة من حكم رعمسيس الثالث (حوالى السنة 1175ق.م.). أوقف زحف هذه الشعوب ولكنها لم تُدَمَّر فاستوطنت شواطىء المتوسط. وهكذا استوطن الفلسطينيون الساحل بين غزة ويافا واستوطن الجكير بعدهم إلى الشمال حول مدينة دور وربما استوطن

الكريتيون إلى جنوب الفلسطينيين في جنوب الكريتيين (les Kérétiens) (صموئيل أول (3، 14). وتمَّ هذا الاستيطان على الأرجح بموافقة المصريين الذين كانوا يعتبرونهم أتباعاً لهم.

كان الفلسطينيون الذين من كفتور (Caphtor) (عاموس 9، 7؛ إرميا 47، 4) (كفتور=كريت؟) منظمين في اتحاد من خمس مدن: غزَّة، اشقلون (عسقلان)، أشدود، عقرون وجت، وكان على رأس كل مدينة قائد يدعى سيرين (يشوع 13، 3. . .). كان هؤلاء الفلسطينيون المنظمون تنظيماً جيِّداً مخيفين بقدر ما هم مسلحون وقد احتكروا صناعة المعادن (صموئيل أول 13، 19).

حدث أول الاحتكاكات الخطيرة بين الفلسطينيين والاتحاد الإسرائيلي في مناطق تلامس الحدود أي بالقرب من منابع يرقون (Yargôn). «خرج الإسرائيليون على الفلسطينيين للحرب فنزلوا عند حجر النصرة ونزل الفلسطينيون في أفيق. واصطف الفلسطينيون بإزاء الإسرائيليين، واحتدمت الحرب فانهزم الإسرائيليون من وجه الفلسطينيين الذين قتلوا في ميدان القتال وفي الصحراء نحو أربعة آلاف رجل» (صموئيل أول 4، 1ـ4).

هذه الهزيمة عند حجر النصرة حمل وَقْرها الإسرائيليون إلى مدى مديد (وقد شملت على الأرجح أسباط إفرائيم ومنسَّى وبنيامين) وقد استولى الفلسطينيون على الشعار القومي وهو «تابوت العهد» في معبد شيلو. وقد تسبب ذلك بموت عالي كاهن شيلو وولديه حفني وفنحاس، وميزت هذه الهزيمة، لا شك، بداية دور صموئيل كقائد ديني تقليدي للإسرائيليين في جبل إفرائيم (ملوك أول 7، 15ـ17).

من الصعب أن تحَدَّد بدقة تفاصيل كيفية وصول شاول إلى العرش. ويبدو، من الممكن، من خلال الروايات التوراتية المختلفة، أن نستخلص وجهين أساسيين لهذا الحدث: من جهة، الدور الهام الذي لعبه صموئيل من تعيين شاول (صموئيل أول 9ـ10)، ومن جهة ثانية، كان اختيار شاول نتيجة المآثر العسكرية التي قام بها على رأس حملة عسكرية بنيامينية انقذت في اللحظة الأخيرة سكان يابيش جلعاد من الاستسلام دون قيد أو شرط لناحاش ملك العمونيين (صموئيل أول 11، 1ـ11). ومن المعقول جداً أن يكون شاول قد أعلن ملكاً في أرض

جلجال أي في أرض لا يسيطر عليها الفلسطينيون (صموئيل أول 11، 12ـ15).

ولم يتأخر شاول على أثر إعلانه ملكاً عن أن يعلن العصيان على المحتل الفلسطيني في الأرض البنيامينية (صموئيل أول 13، 2ـ7. 17ـ18). ولا تروي التوراة تفاصيل معركة مكماش حيث أبلى يوناتان بن شاول البلاء الحسن (ملوك أول 14)، لكن حرب التحرير كانت طويلة وزهق فيها الكثير من الأرواح (صموئيل أول 14، 52). طُرِد الفلسطينيون أخيراً من جبل إفرائيم فحاولوا أن يهاجموا من جديد من الجنوب أولاً ثم من الشمال.

انطلق الفلسطينيون من سوكو التي ليهوذا وحاولوا الصعود في وادي البطمة (صموئيل أول 17، 1ـ2) مهددين تهديداً مباشراً العشائر العبرانية في منطقة بيت لحم الذين أسهموا منذ ذلك التاريخ بالمعركة ضد الفلسطينيين إلى جانب شاول. وبوجود عدو مشترك تقرَّبت عشائر يهوذا من إسرائيليي شاول على صورة حلف شمل تسليم أعداء شاول (صموئيل أول 23، 7 ـ 28؛ 24، 2 ـ 23؛ 26).

ولما فشل الفلسطينيون في الدخول من الجنوب حاولوا أن يطوِّقوا جبل إفرائيم من الشمال بانتقالهم إلى وادي الأردن من جهة بيت شان. انطلق الجيش الفلسطيني من أفيق وعبر سهل يزرعيل، وضرب خيامه في شونَم قبالة الجيش الإسرائيلي الذي يسيطر على مرتفعات جلبوع (صموئيل أول 28، 4). وأودت المعركة بكثير من الضحايا: «مات شاول وثلاثة بنيه وحامل سلاحه وجميع رجاله في ذلك اليوم معاً». (صموئيل أول 31، 6). دخل الفلسطينيون بيت شان وسيطروا على المنطقة بكاملها (حوالي السنة 1010ق.م.).

واستطاع الفلسطينيون بعد هزيمة جلبوع أن يدخلوا من جديد إلى جبل إفرائيم. ومن أجل متابعة المعركة قاد أبنير ابن عم شاول، وقائد جيشه، ابن شاول إشبوشت إشباعال إلى محنائيم من الجهة الأخرى لنهر الأردن وأعلنه ملكاً على إسرائيل (وخصوصاً على بنيامين وإفرائيم ويزرعيل وجلعاد) بدلاً من شاول (صموئيل ثانٍ 2، 8ـ10). ولم يدم ملكه سوى سنتين تميزتا بالحرب بين أنصار إشبوشت وأنصار داود، ثم بالمنافسة بين إشبوشت وقائد جيشه أبنير (صموئيل ثانٍ 2، 36 ـ 10، 11). ضعف ابن شاول بعد خيانة أبنير له ومقتله في حبرون

(صموئيل أول 3، 4 ـ 12، 1)، وابن شاول قتله اثنان بيثيروتيان انتقاماً لسياسة شاول ضد سكان المدن الجيعونية الأربع (صموئيل ثانٍ 21، 5).

وإذا كانت المدة الحقيقية لملك سلالة شاول غير محددة بدقة فإن أهميتها لا تنكر. لقد نقلت المجتمع الإسرائيلي من اتحاد هش بين العشائر والقبائل إلى مملكة عسكرية يجند الملك فيها ضبَّاطاً يقطع عليهم أفضل الأراضي (صموئيل أول 8، 11ـ17؛ 14، 52ب؛ 22، 7).

II ـ داود والتوسع العسكري (حوالى 1010-1003-970)

عند موت إشبوشت (إشباعال)، «آقبل جميع شيوخ إسرائيل لملاقاة الملك في حبرون، فقطع الملك داود معهم عهدا، في حبرون أمام الرب، ومسحوا داود ملكاً على إسرائيل» (صموتيل ثانٍ 5، 2ـ3). ويبدو أن اختيار داود ملك بني يهوذا في حبرون ملكاً على إسرائيل، كان مفاجئاً، ولكن الرواية التوراتية تقول بالتفصيل كيف آن الإسرائيليين وصلوا إلى هناك في حكاية مفصلة دعيت «قصة ارتقاء داود» (صموتيل أول 16. . .).

وكان داود بن يسّى إفراتيا من بيت لحم من يهوذا دخل في خدمة شاول. ولم يلبث هذا الفتى آن اكتسب عطف يوناتان، الأمر الذي أثار حفيظة شاول فاضطر داود إلى أن يتوارى في الأدغال. وتحول داود بعد قليل زعيم عصابة يجمع حوله جميع الناقمين من بينهم أبياتار بن أحيملك كاهن نوب من سلالة عالي من شيلو (صموتيل أول 22، 21). وبعد أن تاه داود بعض الوقت من برية معون وفي منطقة عين جدي ولكي يتحاشى ملاحقة شاول له ذهب وصحبه يبيعون خدماتهم لملك جتّ الفلسطيني المدعو أكيش فأقامه هذا على صقلاج جنوبي البلاد ليرد تعديات بني يهوذا والعمالقة. واستغل داود مركزه لينقذ عشائر يهوذا من ضغوط العمالقة. وأتاحت هزيمة جلبوع وموت شاول فرصة لداود لكي يعلن نفسه ملكاً على حبرون واعترف له بذلك عشائر يهوذا، وقد ثبت نفسه عسكرياً شيئاً فشيئاً، من جهة، بإيقافه تقدم الجيش الإسرائيلي بالقرب من جبعون، وسياسياً، من ناحية أخرى بزواجه وعلاقاته الدبلوماسية ومساعيه لمحالفة أبنير (صموئيل ثانٍ 2ـ3). وكانت النهاية الطبيعية لكل هذه المساعي التي

غُلِّقت لفترة بسبب موت أبنير هي انضمام شيوخ إسرائيل إلى ملكية داود.

ولم يتمالك الفلسطينيون أن يظلوا غير مبالين أمام توصل خادمهم القديم إلى أن يصبح ملكاً على يهوذا وإسرائيل معاً. فجهدوا لفصل الوحدتين السياسيتين من جديد وذلك بمهاجمتهما عند الحدود المشتركة، قرب أورشليم في وادي رفائيم، .لكن داود ردَّ الجيش الفلسطيني على أعقابه (صموئيل ثانٍ 5، 17ـ25). وجعلت هزيمة الفلسطينيين مدينة «اليبوسيين» أورشليم معزولة. واستطاع داود أن يقطفها كثمرة ناضجة، ويجعل منها عاصمته بعد أن كان ملكاً على حبرون لسبع سنوات وستة أشهر (صموئيل ثانٍ 3، 5).

أتاح اختيار أورشليم عاصمة على الحدود بين بيت يهوذا وبيت إسرائيل لداود أن يثبت سلطته الشخصية، حصَّن المدينة وجعل منها مركزاً دينياً إسرائيلياً بنقله تابوت العهد إليها (صموئيل ثانٍ 5، 6). وكان مصدر قوته في الواقع هو قوته العسكرية: فمنذ اللحظة التي لجأ فيها إلى الأدغال ظهر كقائد عصابة كامل. وساعدته إقامته في صقلاج وغاراته على العمالقة على تدريب فرقة من الجنود كلهم مخلصون له. وأصبحت هذه الفرقة فيما بعد حرسه الشخصي أحاطت به عندما أصبح ملكاً. ولكي يضمن إخلاص هذا الجيش وضع على رأسه يوآب ابن أخته (أخبار أول 2، 16؛ صموئيل ثانٍ 8، 6).

وبعد أن أوقف داود التوسع العسكري الفلسطيني استخدم جيشه ليبسط مملكته خارج حدودها الأساسية. أخضع المؤابيين وفرض عليهم الجزئية. (صموئيل ثانٍ 8، 2). وبمناسبة ارتقاء حنون عرش المملكة العمُّونية تذرع داود بإهانة دبلوماسية فشنَّ حرباً لا هوادة فيها على المملكة المؤآبية انتهت بالاستيلاء على العاصمة ربَّة. وغنم داود غنيمة عظيمة واستولى على عرش العمونيين (صموئيل ثانٍ 10ـ12). وكانت هذه الحرب من الضراوة بحيث إن العمونيين طلبوا النجدة من الممالك الأرامية المجاورة (صوبَة، بيت رحوب، بيت معكة وطوب) فردَّهم يوآب على أعقابهم (صموئيل ثانٍ 10، 6ـ14). وتسلم داود بعد ذلك أيضاً قيادة الجيش لمهاجمة هدد عازر، ملك صوبة وقائد التحالف. وحدثت المعركة عند هيلام: أسر شوباك قائد جيش هدد عازر في المعركة وحطم داود سبعمئة مركبة ولم يترك منها سوى مئة مركبة لجيشه لأن جيشه لم يكن مدرَّباً على

استعمال هذه الآليات (صموئيل ثانٍ 8، 9ـ10). وعلى أثر هذا الانتصار عيَّنَ داود والياً على الشام وفرض جزية على أتباع هدد عازر الأراميين القدماء. وفوق ذلك اعتُبر توعي ملك حماة والعدو التاريخي لهدد عازر حليفاً وإلى حدٍّ ما تابعاً لداود (صموئيل ثانٍ 8، 9ـ10). وفي الجنوب وبعد هذه الانتصارات التي أحرزها داود على العمالقة (صموئيل أول 30، 17؛ صموئيل ثانٍ 8، 2) سيطر على أرض آدوم التي يسكنها شعب رحَّل. وما سهَّل تحقيق جميع هذه الانتصارات العسكرية هو الضعف المؤقت للقوتين العظميين في ذلك العصر وهما: مصر وآشور. غير أن داود لم يَسعَ إلى الحرب بشكل منهجي: فهو، بعد أن دمَّر الفلسطينيين لم يعمل على احتلال أرضهم، بل أقام علاقات متينة مع الفينيقيين وخاصة مع حيرام ملك صور من أجل الاستفادة من تجارتهم ومما عندهم من تكنولوجيا (صموئيل ثانٍ 5، 11، ملوك أول 5، 15).

وكانت سياسة داود الخارجية تبدو أوفر حظاً من سياسته الداخلية المحكومة بمشكلتين خطيرتين: الخلافة وتعايش يهوذا وإسرائيل؛ وكانت هاتان المشكلتان غالباً متلازمتين. وقد أظهر داود شيئاً من الإزدواجية تجاه سلالة شاول: فهو من جهة أسلم، بمناسبة كارثة عامة، سبعة من ذرية شاول إلى الجبعونيين فقتلوهم جميعاً إنتقاماً (صموئيل ثانٍ 21، 1ـ14)؛ ومن جهة أخرى فبعد أن تزوج من ميكال إبنة شاول أهملها ولم ينجب منها أطفالاً (صموئيل ثانٍ 6، 20ـ23) في حين أنه كان يستقبل في بلاطه آخر نسل شاول، ماريبال (مفيبوشت)، وهو مقعد وذلك لكي يكرمه ولكي يُحصي عليه أنفاسه (صموئيل ثانٍ 9). ولم يستطع داود أن يسوِّي مشكلة وراثته الخاصة.

قُتِل إبنه البكر أمنون بأمر من إبنه الثالث أبشالوم انتقاماً لشرف أخته (صموئيل ثانٍ 13). وبعد أن نفي أبشالوم مدة عند جده، ملك جشور نجح بدعم من يوآب في أن يستعيد مكانته في البلاط وحتى أن يحمل ممثلي الأسباط على إعلانه ملكاً (صموئيل ثانٍ 14، 15، 1ـ13). وإذ فوجىء داود بذلك ترك أورشليم على عجل والتجأ إلى محانايم في ما وراء الأردن مع حرسه الشخصي (الكريتيين والفليتيين) وقادة جيشه. وكانت الحرب الأهلية التي تلت ذلك قصيرة جدًا. تحدَّى يوآب أنصار أبشالوم الذي قتل في المعركة. وبعد مساع مختلفة عاد

داود إلى أورشليم. غير أن مراحل العودة إلى أورشليم كانت قد أثارت تارات قديمة بين الإسرائيليين وبين يهوذا؛ ورفع بنياميني يدعى شيبا بن بكري راية الانتفاضة معلناً استقلال إسرائيل عن داود. وبعد أن قضى يوآب على خصمه أماسا الذي عين على رأس الجيش، انطلق في إثر قائد العصيان الذي أعدمه وسلمه سكان آبل بيت معكة حيث التجأ.

بعد أمنون وأبشالوم اعتبر أدونيا الابن الرابع لداود هو الوريث المحتمل لداود ومن مناصريه المخلصون لداود: مثل القائد يوآب والكاهن آبياتار (صموئيل ثانٍ 3، 4؛ ملوك أول 1، 5ـ7). لكنه أبعد الكاهن صادوق والنبي ناتان وبنياهو قائد الحرس الخاص بداود. كان هذا الفريق يدعم طموحات أصغر أبناء داود ألا وهو سليمان بن بتشابع. توِّج سليمان وأبوه على قيد الحياة وقد مات بعد وقت قصير.

وفي غمار الفتوحات الخارجية والمنافسات الداخلية قام داود بتنظيم إداري قرنه بإحصاء لعدد السكان هادفاً إلى فرض ضرائب (صموئيل ثانٍ 24، 1ـ9). وصمم أيضاً على بناء هيكل ملكي في أورشليم (صموئيل ثانٍ 7). اصطدم هذان المشروعان بمعارضة داخلية عنيفة ولم يتحققا إلاّ في أيام خلفه سليمان. وظلت الإدارة في بيت إسرائيل وبيت يهوذا على ما كانت عليه تقريباً أيام شاول. كان يغذي الأموال الملكية مصدران أساسيان: أحدهما خارجي وهو الغنائم التي تصاب من الأعداء وآخر داخلي وهو الغلال التي كانت تنتجها ممتلكات التاج وهي على ما يبدو كثيرة وجيدة التنظيم (أخبار أول 27، 25ـ31). وحفظ التقليد التوراتي الكثير من التسجيلات التي تتضمن أسماء وزراء داود ومستشاريه منهم قائد الجيش وقائد الحرس الشخصي وكهنة أورشليم وكاتب الملك ورسوله. كان داود نفسه هو الذي يقرر فاحتفظ ببعض القطاعات مثل قطاع العدل (صموئيل ثانٍ 8، 15). وظلت السلطات المحلية تمارس أعمال العدالة التقليدية وصار بالإمكان بعد ذلك رفع الدعاوى إلى الملك (صموئيل ثانٍ 14، 15).

باستثناء مشاكل الخلافة حقق عهد داود نجاحاً فذًا. وكان عند موته حاكماً لإمبراطورية حقيقية في قمة ازدهارها الاقتصادي. ويفسر هذا النجاح كيف أن صورة داود اعتبرت مثالية كما اعتبر عهده العصر الذهبي لإسرائيل، غير أن هذه

الإمبراطورية ظلت هشة وكانت مهمة خلفه محاولة تدعيمها.

III ـ سليمان والإدارة (حوالى 971-970-931)

وبعد موت داود باشر سليمان تدعيم سلطته على الصعيد الداخلي كما على الصعيد الخارجي سواء بسواء. ولم يتردد الملك الجديد، على المستوى الداخلي، في أن يصفي قادة المعارضة أي محاربي أخيه آدونيا (ملوك أول 2، 12ـ46).

وعلى الصعيد الخارجي استغل الفرعون سيامون موت داود وجهز حملة على فلسطين فاحتل جازر ودمَّرها. وأدرك الفرعون أن جيشه لم يكن مؤهلاً لمواجهة جيش سليمان، فانتهت الحملة باتفاق هو عبارة عن تحالف على قدم المساواة: وهذا أمر لا سابقة له في التقليد المصري القديم؛ وأعطى الفرعون إبنته زوجة لسليمان وكان مهر الزواج مدينة جازر (ملوك أول 3، 1). وبالمقابل تعهد سليمان، على الأرجح، عدم مهاجمة المدن الفلسطينية العشر. ومن ناحية أخرى جدَّد التحالف مع أحيرام ملك صور (ملوك أول 5، 15ـ32) وطوَّر المبادلات التجارية مع هذا البلد.

ويرجح أن سليمان أقام علاقات مع مملكة سبأ (ملوك أول 10، 1ـ10) بالرغم من أن هذه العلاقات كان عرضة للنقاش من الناحية التاريخية نظراً إلى صعوبة التأريخ في جنوبي شبه الجزيرة العربية. كانت هذه المملكة من كبار منتجي الأفاويه التي كان الاتجار بها يعود بالنفع العميم على ملك أورشليم، وقد استطاع سليمان، على الأقل في بداية حكمه، أن يستغل قوته العسكرية التي تركها له أبوه ليظهر كقوة سياسية مهيمنة في جنوبي المشرق. وقد استطاع سليمان، بعد تسوية المشاكل السياسية الأساسية في الداخل والخارج، أن يتفرغ لعمله الأساسي وهو تنظيم إدارة إمبراطوريته، تلك المهمة التي عادت عليه بلقب «الحكيم» أي الرجل السياسي الماهر والإداري المحنك (ملوك أول 3، 7ـ13. 28، 5، 9؛ 6ـ10).

1 ـ **الحكومة المركزية**. ـ وعلى غرار داود، أحاط سليمان نفسه بموظفين كبار ومستشارين شكَّلوا نوعاً من الوزارة الملكية. تعطي قائمة الأسماء الواردة في سفر الملوك الأول الفصل الرابع الآيات من 1 إلى 6 الدليل على السمة الوراثية

تقريباً للوظائف الأساسية: كاهن، أمين سر، موفد، قائد جيش. غير أنه قد استحدث وظائف إدارية جديدة مثل: مدير البلاط، رئيس الولاة، القيّم على السخرة. ويلاحظ في هذه الوزارة الدور الكبير الذي كان يلعبه أعضاء عائلته النبي ناتان مكافأة له على ما فعله بخصوص ارتقاء سليمان العرش.

2 ـ **الولايات**. ـ قسمت الأرض الإسرائيلية، بما احتوت من مدن كنعانية ضمها إليه داود، إلى اثنتي عشرة ولاية يحكم كل ولاية والٍ أو وكيل يعينه سليمان. فالقائمة المشوهة جزئياً والوارد ذكرها في كتاب الملوك الأول الفصل الرابع الآيات من 8 إلى 19 تتيح لنا إعادة تنظيم هذا التقسيم الإداري.

3 ـ **الأموال**. ـ كان على كل ولاية أن تؤمن نفقات البلاط الملكي لشهر واحد (ملوك ثالث 4، 7) وهي كلفة باهظة بسبب كثرة الحريم الملكي وعدد الموظفين الكبار والمركبات الملكية. وكان هذا التموين المنظم يعطي فكرة عن الموارد الأخرى لممتلكات التاج التي كان «مدير البلاط» يقوم بحسن إدارتها. وكانت خزينة الملك تتغذى، بسبب فقدان غنائم الحرب كما كان يحدث أيام داود، بالهدايا والجزية التي كانت تقدمها الدول التابعة للمملكة. وعلاوة على ذلك كان الملك مهيمناً على التجارة الدولية وهي مصدر لأرباح لا يستهان بها:

ـ تجارة قوافل الصحراء أي البخور والأفاويه (ملوك أول 10، 1ـ13).

ـ تجارة البحار القصية حتى بلاد أوفير لجلب المنتجات والحيوانات الاستوائية وكذلك الذهب في رحلات مشتركة مع الفينيقيين الذين كانوا في أوج توسعهم الاستعماري (ملوك أول 9، 26ـ28؛ 10ـ12).

ـالتجارة مع فينيقيا: منتجات زراعية (قمح، زيت) بمقابل خشب البناء (أو أرز، سرو) ومساعدة تقنية (ملوك أول 5، 24ـ25).

4 ـ **الجيش**. ـ وبالرغم من أن السلام ظل مسيطراً طوال أيام الملك سليمان فإنه اهتم بتحديث جيشه وأوكل هذه المهمة إلى القائد القديم لحرس داود الشخصي المدعو بناياهو (ملوك أول 4، 4) وعلاوة على الاحتفاظ بهذا الحرس الشخصي، فإن الجهد الأساسي انصبَّ على المركبات (ملوك أول 10، 26ـ29).

5 ـ **الأشغال العامة**. ـ بالإضافة إلى تشييد الحصون من أجل الدفاع أنجز

سليمان أعمالاً عظيمة وخاصة في العاصمة: الهيكل (هيكل سليمان)، القصر الملكي، المِلُّو[*] (le millo) وسور أورشليم (ملوك أول 9، 15). كانت هذه الأعمال الضخمة مشاريع طويلة الأمد: سبع سنوات للهيكل، ثلاث عشرة للقصر الملكي وذلك مع نتائج اقتصادية واجتماعية قيّمة. لم تباشر هذه الأعمال إلاّ بمساعدة تقنية ومادية من الفينيقيين الذين قدموا المهندسين والعمال الاختصاصيين وكذلك جزءاً من المواد الأولية (خشب البناء والذهب). وكانت هذه الواردات من الأهمية بحيث إن سليمان، من أجل موازنة هذه المقايضات، قدّم لملك صور بلاد كابول التي تشمل على الأرجح سهل عكا بكامله (ملوك أول 9، 10). فضلاً عن ذلك، فإن هذه الأعمال العظيمة أسهمت في تنشيط صناعة المعادن في وادي الأردن (ملوك أول 7، 46. . .). وكانت هذه الأعمال العمرانية العظيمة تتطلب أيدي عاملة وفيرة إلى العاصمة كما في المدن الرئيسية وفي لبنان (ملوك أول 5، 28)، أيدي لا يمكن توفيرها إلاّ عن طريق السخرة. وبالرغم مما ورد في سفر الملوك الأول الفصل التاسع الآية 22 فإن الذين شملتهم أعمال السُّخرة ليسوا فقط سكان المدن الكنعانية القديمة ولكن الإسرائيليين أيضاً (ملوك أول 5، 27).

ويتضح بسهولة أن نمو مؤسسة السخرة لم تكن تحظى بموافقة الشعب. لقد أثارت عدة تناقضات وخاصة «بيت يوسف» الذي ثار بقيادة قيّم السخرة الخاص به وهو ياربعام بن نباط. فشل التمرد ولجأ ياربعام إلى مصر بالقرب من الفرعون شيشاق الأول مؤسس السلالة الثانية والعشرين الذي كان يستقبل كل المعارضين لنظام سليمان (ملوك أول 11). إن الموقف غير الودي الذي وقفته مصر في الجنوب الغربي ونشوء قوة ملكية آرامية في الشام، في الشمال الشرقي (ملوك أول 11، 23، 25) عكر نهاية حكم سليمان.

من الصعب تنظيم ميزانية متوازنة من مملكة شاول حتى مملكة سليمان. لقد عرف الشعب العبراني خلال قرن (1030-950) تحوُّلاً عظيماً. توحدت عشائر يهوذا وانضمت، تحت حكم ملك واحد، إلى أسباط الاتحاد الإسرائيلي الذي

(*) ويعني تلة أو كومة تراب.

اندمجت به أيضاً عدة حواضر كنعانية. فحتى ولو ظلت هذه الشعوب المتنوعة مختلفة ببنياتها الاجتماعية وثقافتها وحتى بلغتها (كانت اللغة العبرانية في الشمال تختلف عن عبرانية الجنوب وقريبة من اللغة الفينيقية)، ظلت بعد قرن من التوحيد، تتسم بحسٍّ مصيرٍ ما مشترك وحنين إلى الوحدة الضائعة.

تمّت الوحدة حول شخص الملك وأصبحت الملكية مؤسسة مستقرة ومعترفاً بها. وتمّ التوافق على مبدأ السلالة بالرغم من أن اختيار الخليفة كان لا يمر دون بعض المشاكل: إن ملك أورشليم سيظل «ابن داود» حتى تدمير المدينة سنة 589. وأكثر من ذلك، فإن الملك، وخاصة سليمان، حوّل المملكة إلى دولة منظمة ذات بُنى توجهها سياسة معينة، مكوّنة هيئة موظفين (اللاويين) مخلصين لخدمة الدولة. ومن أجل إعداد هؤلاء الموظفين وتدريبهم على القراءة والكتابة والحساب وإدارة المحال التجارية وتوزيع الجرايات وجمع الضرائب... أسس سليمان على الأرجح مدارس في أورشليم وفي عواصم الولايات. وبالرغم من ندرة الشواهد الكتابية، فمما لا شك فيه أن هذا العصر قد شهد تطور أدب إسرائيلي بحت هدفه إضفاء قيمة على التقاليد القومية وعلى شخص الملك (راجع المصدر اليهودي لكتب اليهود الخمسة وقصة ارتقاء داود العرش). ولم يحجم هذا الأدب، تلبية لحاجات التعليم، عن أن يقتبس من «الحكمة» العالمية وعلى الأخص من الحكمة الفرعونية (أمثال 22، 17-23، 14).

وقضت هذه البنية الدولية على البنية الاجتماعية التقليدية وهي: العائلة، العشيرة، السبط. وانتقل الشعب العبراني من اتحاد وحدات سبطية أو عشائرية مستقلة، إلى حد ما، إلى مجموعة ولايات مرتبطة بالدولة المتمركزة حول العاصمة أورشليم مع مؤسستين هما: الجيش والسخرة، اللذان أحدثا اندماجاً بين أفراد الشعب لم يكن يحظى بالموافقة عليه، بشكل عام، كما ظهر ذلك في ردود الفعل على الإحصاء في عهد داود ثم في حركات التمرد ضد السخرة أيام سليمان. وكانت التشنجات الاجتماعية من الحدة بحيث أورى نيرانها التحاسد بين بني إسرائيل وبني يهوذا. والواقع أنه في إدارة الولايات كما في تنظيم السخرة واختيار الموظفين الكبار المدنيين والعسكريين حظي «بيت يهوذا» بعطف خاص الأمر الذي أثار نقمة شعبية لدى بني إسرائيل.

وقد أكدت الحفريات الأثرية التحول العميق في المجتمع العبراني. ففي حين أن الخرائب التي تعود للشعب الإسرائيلي، في بداية عصر الحديد الأول، هي بقايا القرى المؤلفة من وحدات مستقلة «بيوت من أربع غرف»، وأن الأبنية العامة الوحيدة تبدو أسواراً مخصصة للعبادة، وتشهد البقايا الأثرية من القرن العاشر ق.م.، على بناء مخطط لمدن محضة تتضمن جدراناً معاقل وأبواباً ذات كمّاشات ومخازن ملكية وأبنية لأشخاص رسميين (حكام؟). ويفترض هذا النمو في المدن ازدياد السكان ازدياداً عظيماً ويعتقد بعض المؤرخين أن عدد السكان تضاعف ما بين عهد شاول وعهد سليمان.

إن الذي سهل التوحيد، أيام داود، هو تعلق الشعب بالإيمان بيهوى، وكون الملك شديد الإيمان بيهوى سهَّل إلى حد بعيد اعتراف شيوخ إسرائيل به، ولم يوفر داود أي جهد في سبيل توحيد «بيته» حول إله قومي واحد، ويجب أن نشير بهذا المعنى إلى الدور الذي لعبه الكاهن أبياتار، من ذرية عالي، والنبيّان جاد وناتان. ومن أجل هذه الغاية نقل داود تابوت العهد إلى أورشليم وصمم على أن يبني على شرفه هيكلاً يليق بعظمة الدولة الجديدة ليجذب الجماهير إلى الحج.

وبالرغم من عملية بناء الهيكل، هذه العملية التي أيَّدها ودعمها الكاهن صادوق، فإن سياسة التوحيد الديني فتر التحمُّس لها أيام سليمان. ففي أورشليم، كما في المدن الكنعانية القديمة، بدت العبادة الرسمية وكأنها تسامحت مع عدد من العبادات الكنعانية التقليدية، وعلاوة على ذلك، فإن الصفة الجامعة لبلاط سليمان أتاحت إدخال عبادات غريبة وحتى بناء مشارف مخصصة لهذه الآلهة الغريبة: كاموش إله المؤابيين وملكوم إله العمونيين وعشتروت إلهة الصيدونيين (ملوك أول 11، 1ـ8) أثارت هذه الممارسات الدينية بعض الإستياء، بين الإسرائيليين المتمسكين بدين آبائهم وحملت الأنبياء على دعم معارضة نظام سليمان (ملوك أول 11، 29ـ39).

الفصل الرابع

المملكتان: إسرائيل ويهوذا (حوالى 931-722)

I ـ التمزق والارتياب (حوالى 931-881)

عند موت سليمان مضى إبنه رحبعام، الذي كان عمره إحدى وأربعين سنة، إلى شكيم لكي يعلنه جمهور الشعب ملكاً على إسرائيل، استغلت جماعة الشعب هذا الظرف فطالبت بتخفيف المتوجبات (السخرة والضرائب) فرفض رحبعام ذلك بعنف، فأعلنت الجماعة عندئذٍ استقلال إسرائيل عن ذرية داود: «لا إرث مع ابن يسّى! إلى خيامكم يا إسرائيل!» (ملوك أول 12، 16)، ورجموا قيّم السخرة الذي أرسله إليهم رحبعام؛ وأمام هذا التمرد هرب رحبعام إلى أورشليم، في حين دعا مجلس الشعب ياربعام بن نباط اللاجىء إلى مصر وأعلنه ملكاً على إسرائيل (ملوك أول 12، 20).

واقتنع رحبعام، الذي أصبح ملكاً على يهوذا، بأن لا جدوى من التدخل المسلح لإخضاع المتمردين ولا سيما أنه ارتسمت في الأفق ملامح تهديد حملة عسكرية مصرية. ولم تعد أورشليم، منذ ذلك الحين، سوى عاصمة مملكة يهوذا جامعة «بيت يهوذا» القديم وسبط أو ولاية بنيامين؛ ويفسر انضمام البنياميين إلى يهوذا بالقرب الجغرافي من أورشليم وبالعداء التقليدي للإفرائيميين. أما ياربعام من جهته فقد جعل في بداية الأمر من شكيم عاصمة له وهي في وسط «البيت الإسرائيلي» ولكنه ما لبث أن اضطر إلى اللجوء إلى عبر الأردن إلى فنوئيل قبل مداهمة الخطر المصري. ويادر ياربعام، لكي يبعد أتباعه عن الإنجذاب الديني نحو هيكل أورشليم، إلى إنشاء هيكل ملكي في شمالي مملكته وجنوبيها، في دان

وفي بيت إيل (ملوك أول 12، 26ـ33).

وفي السنة الخامسة لحكم رحبعام (حوالى سنة 926) استغل الفرعون شيشاق الأول انقسام مملكة سليمان ليثبت سلطته على فلسطين. اتبع جيشه طريقاً تعرفه المدوّنات المصرية «غزة، جازر، روبوت، أيالون، كرياتيئيم، بيت حورون، جبعون». ولدى اقتراب الجيش المصري آثر رحبعام أن يستسلم ويدفع جزية باهظة يأخذها من كنوز الهيكل والقصر الملكي (ملوك أول 14، 26). وتوجه الجيش المصري عندئذ نحو مملكة إسرائيل: «زمارائيم، غو (فنا)، (شكيم)، (طِ) رزاح، مجدال، آدم، سكوت، قادش ـ فنوئيل. . .».

وبعد أن دمر شيشاق شكيم تابع تقدمه عند حجارة دامية ووصل إلى فنوئيل حيث لجأ ياربعام. ثم صعد الأردن حتى بيت شان وعاد بطريق وادي يزرعيل (Yizréel) ومجدُو وسهل شارون. وفي هذا الوقت دمرت مفرزة حصون الجنوب أو النقب Négeb. وأدت هذه الحملة المصرية إلى تدمير أكثر مدن فلسطين ما عدا التي في بيت يهوذا. وتؤكد الحفريات الأثرية هذا التدمير الشامل حوالي نهاية القرن العاشر.

لم يصب قلب مملكة يهوذا بأذى فشرع رحبعام بتحصينه (أخبار ثانٍ، 11، 6ـ12) عندئذ استغل رحبعام ضعف المملكة الإسرائيلية على أثر الحملة المصرية وهاجم ياربعام. واستمرت هذه الحرب بعد موته بقيادة إبنه آبيا (أو آبيام) (حوالي 914-912) وحفيده آسا (حوالى 912-871).

وبعد حملة شيشاق أقام ياربعام في طرزاح على عشرة كلم إلى الشمال والشمال الشرقي من شكيم. والظاهر أنه قاوم شيئاً ما هجمات رحبعام ولكن ابن هذا الأخير، كان قد اكتسب بعض الخبرة فيما كان أبوه على قيد الحياة (أخبار ثانٍ 11، 22) فهزمه في معركة زمارائيم (Zemarayim) واحتل جنوبي جبل إفرائيم: بيت إيل ويَشانة وعفرائين (أخبار ثانٍ 18-19). حركت هذه الهزيمة المعارضة وخاصة النبي أحيّا في شيلو (ملوك أول 14، 1ـ20) طرد إبنه ناداب بمؤامرة في الوقت الذي كان يحاصر فيه مدينة فلسطينية هي جبّتون (ملوك ثالث 15، 27).

وأُعلِن بعشا من بيت يَسّاكَرَ ملكاً على إسرائيل في تِرحة (حوالى

سنة 909-886 ؛ ملوك أول 15، 27، 33). إستأنف الحرب ضد يهوذا وحصن رامة، 8 كلم شمالي أورشليم لقطع الطريق الشمالية التي تؤدي إلى عاصمة يهوذا، فلجأ آسا، ملك يهوذا، إلى طلب التدخل الخارجي، إلى تدخل الملك الآرامي في الشام وبارهدَد من تبريمون (Tabrimmôn) فألغى هذا تحالفه مع إسرائيل لقاء مبلغ طائل من الفضة والذهب. وهاجم وادي الأردن الأعلى: إيون، عيون، دان، آبل، بيت معكة وأرض نفتالي. غادر بعشا، على وجه السرعة، مدينة راما التي دمَّرها آسا بتدعيمه القلاع البنيامينية في جَبَع والمصفاة (ملوك أول، 15، 16ـ22). وأثارت هزيمة بَعشا المعارضة الداخلية وخاصة معارضة النبي ياهو بن حناني (ملوك ثالث 16، 1-7). وبعد موت بعشا بقليل طُرِد إبنه إيلة (حوالي سنة 886-885) على أثر مؤامرة قادها زمري أحد الضباط وقائد نصف المركبات. وبعد أن استأصل زمري كل ذرية بعشا أُعلِن ملكاً لإسرائيل في تِرصة، ولكن الجيش الذي حاصر جبتون للمرة الثانية لم يقبل بهذا الإنقلاب، فحاصر ترصة بإدارة قائده عُمْري. أحرِق القصر الملكي وقتل زمري في الهجوم (حوالى سنة 885) وبعد حرب أهلية دامت أربع سنوات، أُعلِن عمري ملكاً على جميع إسرائيل في ترصة بعد موت خصمه تبنى ابن جينَت (حوالى سنة 881).

II ـ سلالة عمري (حوالى 881-841)

وجهد عمري لكي يعم الاستقرار والسلام في مملكته. فبعد أن دمر القصر في ترصة، أسس عاصمة في السامرة على إثني عشر كلم شمالي غربي شكيم. وَسَمَ هذا الخيار إرادة التجديد ورغبة في التقارب من فينيقية، تقارباً أكّده زواج إبنه آحاب من إيزابل إبنة ملك صور (ملوك أول 16، 31). وكان هذا التحالف ضرورياً. لقد تأكد التهديد الأشوري: بلغت إحدى الحملات الآشورية شاطىء المتوسط واضطرت مدن صور وصيدون (صيدا) وجبيل (بيبلوس) وأرواد إلى دفع الجزية لأشور ناصر بال الثاني.

وإستناداً إلى نصب ميشاع ملك مؤاب، أخضع عمري أرض مؤاب فأدت الجزية (أنظر 4-8). وبمقابل ذلك لقد وضع حداً للحرب ضد مملكة يهوذا.

والحق يقال أنه، بعد حكم لاسا مدة، ضعفت مملكة يهوذا عسكرياً ومالياً

بسبب الحروب والجزية التي كان عليها أن تدفعها للآراميين، ولم تعد تشكل تهديداً خطيراً لمملكة إسرائيل.

وبعد موت عمري تابع آحاب سياسته (حوالي سنة 874-853) وازدهرت العلاقات الفينيقية الإسرائيلية بتأثير من زوجته إيزابيل، في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية على حد سواء. وكان ملك مؤاب صاحب ماشية وقطعان «دفع ضريبة لملك إسرائيل» حملاناً وأكباشاً بصوفها (ملوك ثانٍ 3، 4) أُكِّد التقارب مع مملكة يهوذا بعقد محالفة: تزوجت عتليا، إبنة آحاب، يورام بن يوشافاط (ملوك ثانٍ 8، 18-26). وكانت سياسة التحالف هذه تتوخى تحاشي التهديد الآشوري الذي يتأكد يوماً بعد آخر. وفي سنة 853 يهاجم شلمناصر الثالث تحالفاً يجمع أكثر الدول السورية ـ الفلسطينية يشمل خاصة، إرهولاني (Irhulani) ملك حماة وهدد عازر ملك دمشق وآحاب ملك إسرائيل. كان هذا الأخير يقود أقوى وحدة مركبات في التحالف (2000!) وأوقفت معركة قرقر الزحف الآشوري لمدة عشر سنوات.

ويقول التقليد التوراتي إن آحاب مات موتاً زؤاماً في حرب ضد الآراميين في راموت جلعاد (ملوك أول 22، 1-38) ولكن هذه الرواية تروى في البداية عن ابن آحاب يورام. وفي الواقع، إن آحاب مات موتاً طبيعياً في السامرة بعد معركة قرقر (ملوك أول 21، 29؛ 22، 40).

بالرغم من أن العرض التوراتي اتسم بوجهات نظر محازبي ياهو أخصام ذرية آحاب، لقد جرى التلميح مرتين إلى أعمال عظيمة (ملوك أول 16، 36؛ 22، 39). وتؤكِّد الحفريات الأثرية في السامرة ومجدُّو وحازور على الأهمية والاتقان في أبنية ذلك العصر. غير أن الازدهار الاقتصادي كان على حساب فقدان شيء من الهوية القومية الإسرائيلية. وبتأثير من إيزابيل التي أصرَّت على بناء هيكل للبعل في السامرة (ملوك أول 16، 32) انتشرت عبادة البعل وهددت الوحدة الدينية الإسرائيلية حول عبادة يهوى. وزيادة على ذلك يبدو أن إيزابيل لم تكن دائماً كثيرة التدقيق في اختيار الوسائل للوصول إلى أهدافها (ملوك أول 21)... وهذان الإتجاهان في البلاط الملكي صدَما بعنف الإسرائيليين التقليديين والذين كان النبي إيليا لسان حالهم.

وبعد موت آحاب لم يحكم إبنه أَحَزْيا سوى وقت قصير (حوالى 853-852) لقد مات بحادث سقطة في قصره (ملوك ثانٍ 1، 2ـ17). واستغل ميشاع ملك مؤاب عجز أحزيا عن الحركة ليتمرد. وربما تمرد الآراميون أيضاً ليحتلوا راموت جلعاد. وعند موت أحزيابلا عقب خلفه أخوه يورام الذي حاول، مستغلاً التحالف مع يهوذا، أن يرتّب الأوضاع عبر الأردن. تصدى أولاً للمسألة المؤابية منظماً حملة مشتركة تضم إسرائيل ويهوذا وفرقة آدومية وطوّق دفاعات مؤاب سالكاً طريق جنوبي البحر الميت. وبعد عبور شاق للصحراء وانتصارات أولية انقلب الوضع رأساً على عقب في قير ـ حراشت Qir-Hareshet (ملوك ثانٍ 3، 25) لمصلحة ميشاع الذي لم يتردد «بالتضحية بإبنه لإثارة حماسة الشعب».

وتأكد الفشل النهائي للحملة المشتركة على النصب التذكاري لـ ميشاع (Mésha) الذي حُفِر في نهاية حكمه تقريباً (حوالى سنة 810): واحتل ملك مؤاب أيضاً بعد ذلك بقليل، بدعم كافٍ من حزائيل، مدن جاد وروبين شمالي أرنون حتى مأدبا وجبل نبو.

وحاول يورام بعد ذلك التصدي للتهديد الآرامي بمساعدة ملك يهوذا وعمل على استعادة راموت جلعاد من جيوش حزائيل الآرامي (ملوك ثانٍ 8، 25-29) جرح يورام بسهم فنقل إلى يزراعيل حيث لحق به أحزيا. واستغل ياهو أحد قادة يورام هذا الضعف العابر ليُجْهِز على ملك إسرائيل ويقتل أحزيا ملك يهوذا ويقضي على إيزابيل وكل أعضاء العائلة المالكة الموجودة في يزراعيل والسامرة (ملوك ثانٍ 4-10، 17). ووضع الإنقلاب العسكري الذي قام به ياهو سنة 841 حداً لذرية عمري على عرش إسرائيل ولكنها استمرت سبع سنوات أخرى في أورشليم مع عتليا.

كانت المدة الطويلة التي قضاها آسا ملك يهوذا في الحكم (912-871) معاصرة في جزء منها لتملك عمري (حوالي 883-874) وتملك آحاب (حوالى 874-853). وبعد بداية واعدة وإصلاح ديني وعسكري تبعه انتصار على الجيش المصري وصحبه بعض الازدهار الاقتصادي (ملوك ثانٍ 14، 1ـ15، 16؛ ملوك أول 15، 11ـ15). تميزت فترة ملكه بحرب ضد الإسرائيليين واستنجاده ببارهَدَد ملك دمشق وبمعارضة داخلية زاد مرضه من خطورتها. تابع إبنه يوشافاط (حوالى

846-871) الإصلاحات الدينية العسكرية الإدارية التي باشرها أبوه بتنظيمه العدل والتعليم في مدن يهوذا (أخبار ثانٍ 17). تمحورت سياسته الخارجية حول التحالف مع إسرائيل: تزوج إبنه يورام من عتليا بنت آحاب. أدت هذه الإصلاحات وهذا التحالف إلى تنشيط ازدهار البلاد. وفي حين أن إسرائيل كانت تمارس حماية على مؤاب، كانت يهوذا تأخذ الجزية من فلسطين وآدوم وتهيمن على تجارة الذهب الآتي من أوفير (ملوك أول 22، 48). اتسمت نهاية عهده بفشل الحملة على المؤابيين. وفي عصر يورام إبنه (حوالى 848-846-841) ثار الآدوميون ولبنة Libnah وبلاد فلسطين. استقلت آدوم وفلسطين. وبعد موت يورام لم يحكم إبنه أحزيا سوى بضعة أشهر: بعد أن انضم إلى حملة يورام الإسرائيلي ضد راموت جلعاد هلك على أثر انقلاب ياهو (841) (نصب آرامي في تل دان).

III ـ سلالة ياهو (حوالى 841-749)

بعد أن قضى انقلاب ياهو على ملوك إسرائيل ويهوذا سبّب فجوة سياسية وثقافية حادة في تاريخ إسرائيل وكان من أثر هذه الثورة توقف مسيرة التحديث التي أرادتها سلالة عمري، وهي مسيرة عرفت «بالكنعنة». كانت ثورة ياهو تعتمد على الأوساط التقليدية التي يقودها أليشع ويوناداب بن ريكاب اللذان قاما بنشاط بارز في الثورة. (ملوك ثانٍ 9، 1-10، 10، 15. . .) «أطاح ياهو بعل إسرائيل» (ملوك أول، 28) بذبح الكهنة وتدمير الهياكل. ومن تفسيرات هذا التوجه الديني أن النوادي النبوية وخاصة أليشع كانت تدعم سياسة ياهو وأتباعه يوآحاز ويوآش. وكان ياهو في أمسّ الحاجة إلى هذا الدعم الداخلي لأن سياسته الخارجية كانت مفجعة. . . فمنذ سنة 841 كان شلمناصر الثالث ملك آشور يهاجم حزائيل ملك دمشق ويحاصر عاصمته ولكن دون أن يستطيع السيطرة عليها. فانتقل بعد ذلك إلى بعالي راشي (راس هنكرا على الأرجح) حيث كان ملك صور وملك صيدون وياهو أيضاً يدفعون له الجزية (يمثل هذا المشهد على المسلة السوداء لشالمناصر الثالث) ولم ينجح شلمناصر الثالث بالرغم من محاولة أخرى سنة 838 في إخضاع دمشق. لقد شغل جيشه في مكان آخر تاركاً المجال حراً لحزائيل. فارتد هذا إلى ياهو وتغلب على الإسرائيليين «على طول حدود إسرائيل من الأردن نحو الشرق، كل بلاد جلعاد من الجاديين والرأوبيين والمنسّيين

من عروعير عند وادي أرنون وجلعاد وباشان (ملوك ثانٍ 10، 32. . .)».

وازداد الوضع سوءاً كذلك أيام ولي العهد ثم خليفة ياهو إبنه يوآحاز (حوالى 819-814-803). وتحولت إسرائيل دولة تابعة لدمشق: «وكان لم يبق لآحاز سوى خمسين فارساً وعشر مركبات وعشرة آلاف راجل (ملوك ثان 13، 7). فإلى هذه المرحلة الصعبة تُعْزى بعض الروايات من حلقة أليشع وعلى الأخص غزوة العصابات الآرامية وشفاء القائد الآرامي نعمان (ملوك ثانٍ 5،) وأقام الآراميون، أسياد الإسرائيليين، أسواقاً في السامرة (ملوك أوَّل 20، 34) وعبروا البلاد ليهاجموا جّت وأورشليم (ملوك ثانٍ 12، 17).

وعرفت مملكة يهوذا هي أيضاً، وعلى امتداد هذه المرحلة، اضطرابات خطيرة. فلدى الإعلان عن ثورة ياهو، تسلَّمت الملكة الأم عتليا بنت آحاب وإيزابيل، السلطة لتمنع امتداد الثورة الدينية والقومية إلى مملكة يهوذا. ودام حكمها سبع سنوات (841، 835) تابعت خلالها سياسة يوشافاط وآحاب: وهي التحالف مع فينيقية والإنفتاح على العبادات الخارجية وخاصة عبادة البعل. وفي سنة 835 قرر يوياداع، كاهن هيكل يهوى وزوج أخت الملك المتوفى، الذي كان قد ربى واحداً من أولاده (أولاد الملك) يوآش بن أحزيا، أن يضع حداً لحكم عتليا. وبمساعدة الحرس الملكي أُعلِن الفتى يوآش ملكاً واغتال عتليا. وعلى غرار ياهو دمر هيكل البعل وقتل كاهنه ماتان.

بدأ عهد يوآش الطويل (حوالى 841-835-802) بعدة إصلاحات دينية وإدارية. وضعت المملكة تحت إدارة الكهنة وعلى الأخص يوياداع (ملوك ثانٍ 12، 5). وفي سنة 819 قرر يوآش أن يشرف هو بنفسه على الإدارة ويعالج بعض الفوضى الناشئة عن أعمال الكهنة. وتميزت نهاية العهد بمعارضة داخلية عنفت شيئاً فشيئاً في أوساط رجال الدين: ولم يتردد يوآش، في سبيل إخمادها، في القضاء على الكاهن زكريا بن يوياداع. وزيادة على ذلك سيطر الجيش الآرامي على جت وزحف على أورشليم، فلم يكن ليوآش من خيار سوى دفع الجزية، الأمر الذي زاد من حدة معارضة بعض معاونيه فقتلوه (ملوك ثان 12، 18-22). انتهى الضغط الآرامي على المملكتين بتدخل ملك آشور هدَدَ نيراري الثالث على حدود مملكة دمشق. وبسبب ذلك على الأرجح رفع الآراميون حصارهم عن

السامرة (ملوك ثانٍ، 6، 24. . .) وعلى أثر غزوة هَدَد نيراري الثالث إلى شاطىء المتوسط، اضطر ملك دمشق المهزوم إلى أن يدفع جزية باهظة بينما كان ما دفعه «يآسو (Ya-a-su) السامري» محدوداً جداً. وعند ذلك سنحت الفرصة ليوآش ملك إسرائيل (حوالى 805-803-790) أن يشن هجوماً على الجيش الآرامي ويحرر الأرض الإسرائيلية غربي الأردن. وتغلب أيضاً على بنهدد الثاني بن حزائيل في أفيق، في وادي يزراعيل على الأرجح (ملوك ثانٍ 13، 14ـ25) وكان انتصاراً تصالح على أثره بنهدد الثاني مع يوآش ملك إسرائيل. (ملوك أول 20، 31-34).

أثار التجدد الإسرائيلي حقد أمَصْيا ملك يهوذا (حوالى 804-802-726). وبعد أن اقتص أمَصْيا من قتلة أبيه حقق انتصاراً ضد آدوم في معركة وادي الملح واحتل شيلا (الصخرة) التي دعاها يقتئيلَ (ملوك ثانٍ 14، 7 أخبار ثانٍ 25، 11). وشجعه هذا الظفر فتحدى يوآش ملك إسرائيل: دُحِر اليهوذيون في بيت شمس وأُسِر أمصيا. احتل الإسرائيليون أورشليم، دمروا أسوارها وعادوا حاملين معهم كنز الهيكل والقصر الملكي وبعض الرهائن وأصبحت يهوذا تابعة لإسرائيل حتى نهاية حكم ياربعام الثاني.

وبعد موت يوآش ملك إسرائيل خلفه إبنه ياربعام لفترة حكم طويلة مزدهرة دامت أربعين سنة (حوالى 790-750).

إن نجاح ياربعام الثاني يذكِّر بنجاح داود. لقد فرض سلطته على سوريا وفلسطين من لابو ـ حماة حتى خليج العقبة (ملوك ثانٍ 14، 25، 28) مسيطراً على طريق القوافل بين غزة وإيلات كما تشير إلى ذلك كتابات كنتيلة ـ عجرود (بين قادش ـ بارنيا وإيلات). وعلى غرار داود وسليمان ضمن ياربعام الثاني لمملكته ازدهاراً اقتصادياً وذلك بمعاهدة مع الفينيقيين وعلى الأخص مع ملك صور (ملكيرام؟). وعلى غرار داود أصلح إدارته وأجرى إحصاءً للسكان (آخبار أول 5، 17). يبدو أن حاجات الإدارة عملت على تطوير استخدام الكتابة وأصبحت الشواهد المدونة عديدة: «آجرّات السامرة، أختام الموظفين الكبار (مثل ختم «شيماوزير ياربعام»). تمارين مدرسية في كنتيلة عجرود: وهذا يتوافق مع التقليد التوراتي لمجموعة الكتابات الأولى للتنبؤات (عاموس وهوشع). وتوحي هذه التنبؤات، مع تأكيدها على النمو الاقتصادي العظيم الذي أثبتته الحفريات

الأثرية، بأن الهوة تزداد عمقاً بين الطبقة الاجتماعية التي تعيش حياة ترف وأكثرية الشعب المزارع الذي يُستَغَل غالباً. ولهذا اصطدم ياربعام الثاني، في نهاية عهده، وبالرغم من دعمه لدين يهوه ولعبادة الهياكل (راجع عاموس 7، 10 «أمصيا، كاهن بيت إيل»، و«زكريا كاهن دور» على خاتم)، اصطدم بمعارضة الأنبياء وخاصة عاموس.

وبعد موت ياربعام الثاني، قتل إبنه زكريا على يد شلّوم بعد ست سنوات من الحكم (حوالى سنة 750). بعد هذه الجريمة دخلت مملكة إسرائيل في مرحلة من الاضطرابات الداخلية والخارجية أدت إلى سقوطها.

بعد معركة بيت شَمَش كان من نتيجة حماية إسرائيل أن وفَّرت لمملكة أورشليم مرحلة من السلام كان مؤاتياً للازدهار السكاني والاقتصادي. وعند موت يؤآش ملك إسرائيل وجد أمصيا نفسه متحرزاً (حوالى 790) ولكنه استقبل في أورشليم استقبالاً سيِّئاً فالتجأ إلى حصن لاكيش تاركاً إدارة المملكة لإبنه عُزِّيا (ملوك ثانٍ 14، 17-21). انتهى عهد الوصاية المشتركة بين عُزِّيا (عزريا) وأبيه بمقتل هذا الأخير في لاكيش (حوالي 776) واتسمت مدة حكم عُزِّيا الطويلة (حوالى 790-776-739) بتقويم اقتصادي وعسكري. طور عُزِّيا الزراعة وتربية المواشي ركني اقتصاد يهوذا (أخبار ثانٍ 26، 10). ومن المعقول أن في عهده استُعْمِل نموذج جديد لمعصرة زيت أدت إلى إنتاج وفير سهل التصدير نحو فينيقيا ومصر. وأعاد عزيا تنظيم الجيش بإعداده التعبئة العامة، وكانت المستودعات الملكية تجهِّز السلاح (أخبار ثانٍ 26، 11...). أعاد بناء سور أورشليم، وضع «آلات» إخترعت خصيصاً لتوضع على الأبراج وعلى الزوايا لرمي السهام والحجارة الضخمة (أخبار ثانٍ 26، 15). وفي نهاية حكمه، تحدث أشعيا عن نتيجة كل التدابير (أشعيا 2، 7د 8) «قد امتلأت الأرض فضة وذهباً فلا عد لكنوزه. وقد امتلأت البلاد خيلاً فلا عد لمركباته».

أتاح هذا الازدهار لعزيا ـ عزريا سياسة خارجية أكثر فعالية في النصف الثاني من حكمه. «هو الذي بنى إيلات وردها ليهوذا» (ملوك ثانٍ 14، 22)؛ «وخرج وحارب الفلسطينيين وهدم سور جت وسور يبنة وسور أشا ود وبنى مدناً في أرض أشدود وفلسطين» (أخبار ثانٍ 26، 6) وبسط وصايته أيضاً على عرب

جنوب فلسطين حتى مدخل مصر وتلقى من العمونيين جزية (أخبار ثانٍ 26، 8؛ 27، 5).

أصيب عزيا في نهاية أيامه بنوع من البرص فأبعد عن الاحتفالات الطقسية في الهيكل (ملوك ثانٍ 15، 2؛ أخبار ثانٍ 26، 16ـ21) وعهد بمسؤولية الإدارة الملكية لإبنه يوتام. وسَم موت عزيا (حوالي 739) بداية مرحلة مضطربة في المملكتين العبرانيتين.

IV ـ طفرات السامرة وسقوطها (722)

تميز عهد تغلات فلاسر الثالث ملك آشور (744-727) بسياسة احتلال منهجي للأراضي تهدف إلى وضع كل دول سوريا وفلسطين تحت سيطرة الإمبراطورية الآشورية. وساد هذا المعطى الجديد للوضع الدولي سياسة الدولتين العبرانيتين لمدى قرن كامل.

عانت الدولة الإسرائيلية عدم الإستقرار تجاه التهديد الآشوري، وقد شهدت تغير النظام أربع مرات متتالية. وهذه تنبؤات النبي هوشع تلمح إلى عدم الاستقرار في هذه المرحلة (هوشع 8، 4؛ 10، 3ـ4، 7).

فبعد أن يحكم شلّوم شهراً يتسلّم مناحيم السلطة في السامرة (حوالي -741 750). لقد اشترك على الأرجح في التحالف ضد الآشوريين فهزم أمام تغلات فلاسر الثالث 743-741؛ كانت الضريبة المفروضة عليه باهظة وقد جمع مناحيم ضريبة استثنائية قيمتها 50 مثقال (شاقل) فضة من كلٍّ من أعيان دولته (ملوك ثانٍ 15، 20). وجعلت هذه الضريبة مناحيم وسياسته مكروهين من قبل الشعب. وهكذا فأبنه فقحيا الذي خلفه (حوالي 741-740) قتله بعد قليل فاقح يدعمه 50 جندياً من بني جلعاد.

اعتبر فاقحٌ مناحيمَ وفقحيا وكأنهما غير موجودين وكأن سنوات حكمهما لم توجد (حوالى 750-740 ـ نهاية 732). وكان بمعية رصين ملك دمشق، أحد الذين عملوا على إحياء الإئتلاف الجديد ضد الآشوريين، هذا الإئتلاف الذي أخذ على عاتقه ضم كل دول سوريا ـ فلسطين. ولما رفض يوتام ملك يهوذا (حوالي 749 ـ 739 ـ 734/ 734) الإنضمام إليهم قرر رصين وفقاح الزحف على أورشليم

لينصّبوا عليها «ابن طبائيل» الذي يناصر قضيتهم. وكاد هذا المخطط المدعو الحرب «السورية الإفرائيمية» أن ينجح لأن مملكة يهوذا كانت حينذاك ضعيفة بسبب موت يوتام، وكان إبنه آحاز (حوالي 735(734ـ719) في العشرين من عمره، وبتواطؤ من المدن الفلسطينية والآدوميين الذين احتلوا إيلات (ملوك ثانٍ 16، 6) زحف المتحالفون لحصار أورشليم. ورغم نداءات التهدئة التي وجهها النبي أشعيا (أشعيا 7) وجد آحاز الموقف ميئوساً منه (أخبار ثانٍ 28، 7ـ5) طلب تدخل تغلات فلاسر الثالث (ملوك ثانٍ 16، 7). تدخل هذا في الحال. فجهز حملة إلى فلسطين وهاجم رصين ملك دمشق، زعيم التحالف، فقتل لدى سقوط عاصمته سنة 732 بينما دفع آحاز وسائر ملوك سوريا ـ فلسطين الجزية (ملوك ثانٍ 16، 8. . . وأكدت ذلك الحوليات الآشورية). وأصبحت جلعاد والجليل (مجدو) وشارون (دور منذ سنة 734) ولايات آشورية وبالاتفاق مع تغلات فلاسر الثالث، اغتيل فاقح ملك إسرائيل ونصب هوشع مكانه (حوالى 731ـ722) وقد غرّم بجزية مرهقة.

ودفع هوشع الجزية بانتظام لتغلات فلاسر الثالث. ولكن يبدو أنه بعد موت هذا الأخير (727) توقف هوشع عن الدفع لأنه كان يأمل أن يستعيد استقلاله بمساعدة المصريين. وكان رد فعل شلمناصر الخامس الملك الآشوري سريعاً. فبعد حصار سنتين سقطت السامرة سنة 722. واقتيد هوشع أسيراً ومعه 27290 أسيراً «إلى حلاح وعلى خابور، نهر جوزان وفي مدائن ماداي» (ملوك ثانٍ 17، 4-6) وما تبقى من مملكة إسرائيل تحول إلى ولاية آشورية (السامرة) حيث أسكن بعض النازحين الوافدين من مناطق أخرى من الإمبراطورية الآشورية (ملوك ثانٍ 17، 24)، وخاصة بعد عصيان ياعوبيدي ملك حماة (720).

وهكذا لم يدم تعايش مملكتين عبرانيتين إلاّ أكثر من قرنين بقليل (حوالى 930-722). وكانت المملكتان في صراع أكثر الأحيان إمّا في حروب حدودية (حوالى 930-855) وإما لفرض علاقات تبعية (حوالى 800-750). وخلال حكم سلالة عمري فقط (حوالى 881-841) تحالفت المملكتان وتوحدت العائلتان المالكتان. فكيف نفسر هذا التوتر بعد حوالي خمس وسبعين سنة من الوحدة؟

. بعد انفصال ياربعام بعدة سنوات، لم يعد للملكلتين عاصمة مشتركة ولا

هيكل مشترك إلاّ مؤسسات سياسية مشتركة وقليل من المصالح المشتركة على الأرجح. النقطة الوحيدة المشتركة التي بقيت حتى مرحلة الملكية الموحدة تقوم على عبادة واحدة، عبادة يهوى وعلى بعض التقاليد المشتركة (أسطورة البطاركة وملحمة الخروج).

وكانت البنى السياسية والاجتماعية للمملكتين العبرانيتين على شيء من الخلاف. وبالرغم من الإنقسام ظلت مملكة يهوذا (بيت داود) مستقرة إلى حد كبير حول عاصمتها أورشليم. وكان ملكها يُعيَّن دائماً من سلالة داود. وكان موظفون لاويون جيّدو الإعداد يؤمنون منذ أيام سليمان تسيير الإدارة.

وكان القصر الملكي بناء فخماً يجمع وزراء الملك والموظفين الكبار فيما كانت إدارة ممتلكات التاج تؤمن عائدات كانت من الأهمية بحيث إن الملك كان هو نفسه يهتم بالزراعة/ وخاصة في شفيلاح/ وبتربية المواشي (وخاصة في جنوب النقب). وكان الدفاع عن المملكة تؤمنه القلاع والحصون في المناطق الحدودية وعلى الأخص في شيفالح (Shéphélah) وتنظيم تجنيد الشعب وتدريبه على السلاح علاوة على وجود جيش نظامي محترف تدعمه بعض الفرق المرتزقة من الغرباء (من الكريتيين والكاريين ثم الكِتيّميين). وكان يؤمن الاستقرار الحكومي بعض العائلات الكبيرة لكبار الموظفين الذين كان الملك يضم إليهم أولاده وخاصة في المهام العسكرية (أخبار ثانٍ 11، 22؛ 21، 3). ويبدو أن الاستقرار السياسي وحسن تنظيم الإدارة كانا من عوامل تعلق الشعب بذرية داود، ولم تكن تثار أية خصوصية إقليمية. وكان ثمة مؤسستان قوميتان توازيان إلى حد ما الإستبدادية الملكية هما: الكهنوت الوراثي ومجموع الشعب. وكان يقوم بخدمة هيكل أورشليم، المركز الديني لمملكة يهوذا، كهنوت كثير العدد غالباً ما كان يجمعه تحالف مع العائلة المالكة وكان رئيس الكهنة يلعب، إبَّان الأزمات كما في ظل حكم عتليا، دوراً سياسياً من الدرجة الأولى (ملوك ثانٍ 11). وبمناسبة أزمات من هذا النوع يتجلى دور جمعية الشعب: إذ تدعو إلى الاجتماع الزعماء التقليديين لمختلف عشائر يهوذا وتمثل الشعب لدى اتخاذ القرارات الخطيرة كالموافقة على اختيار ملك جديد (ملوك ثانٍ: 11، 14) أو إصلاح اجتماعي (إرميا 34، 18؛ ملوك ثانٍ 23، 1-2).

عرفت مملكة إسرائيل على مدى أكثر بقليل من قرنين، ثمانية انقلابات أدّت إلى تغيير العائلة المالكة. وأسباب هذا الاضطراب السياسي كثيرة بعضها يعود إلى الظروف التي حدثت فيها ثورة ياربعام، تلك الثورة التي قامت ضد جهاز الدولة الذي اعتبر كثير التسلط. واحتاجت الدولة الجديدة إلى بعض الوقت لاختيار عاصمة حقيقية وعجزت عن أن تكون نموذجاً في التنظيم والإدارة. جدد الملك العرف الذي كان سائداً أيام شاول وهو أن يكون قائد الجيش. وكان يُعزَل حالاً عندما يتحمل مسؤولية فشل ما. وكان لمملكة إسرائيل امتداد جغرافي أكثر من مملكة يهوذا وكانت أكثر تعرضاً وخاصة عند حدودها الشمالية الشرقية (حيث الآراميون والآشوريون). وعلاوة على ذلك فإن المملكة لم تكن تحتوي على مركز ديني حقيقي وكانت المشارف (أماكن العبادة) منتشرة في كل أرجاء المملكة: بيت إيل، دان، جلجال والسامرة.

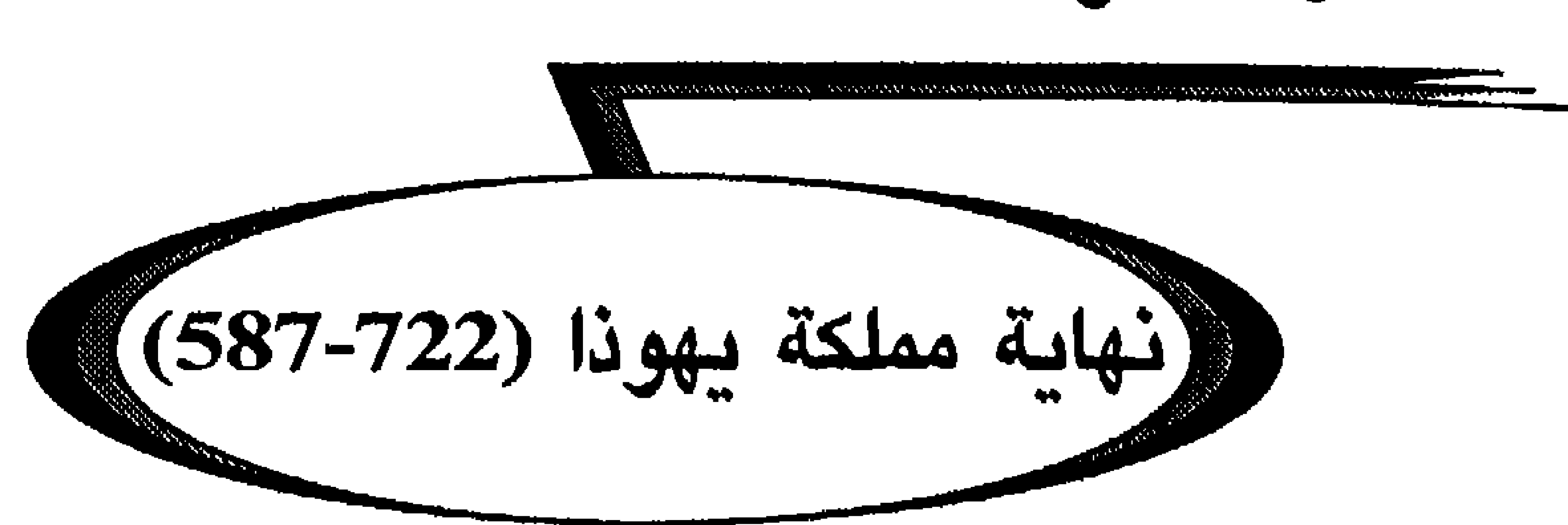
والسلطة الملكية التي كانت تستند إلى حكومة على رأسها مدير البلاط كان يقابلها سلطة أدبية ودينية هي سلطة الأنبياء. كان هؤلاء يقومون بدور سياسي بارز جداً فهم كانوا يقيلون ويضعون الملوك. فتارة كانوا يعارضون سياستهم معارضة جذرية كحال إيليا مع آحاب وطوراً يدعمونها بكل ما لديهم من سلطة أدبية كما دعم أليشع ياهو ويؤاحاز ويؤاش.

وإذ كان هؤلاء الأنبياء يعتبرون أنفسهم ضمير إسرائيل، كانوا يهتمون على الأخص بحماية المجتمع الإسرائيلي من النفوذ الكنعاني والغريب. وكانت المواجهة بين الديانة الإسرائيلية والديانات الكنعانية (كما مرَّ معنا) حادة جداً في عهد آحاب، واضطر إيليا، المدافع الزميت عن عبادة يهوى، إلى التواري في وقت من الأوقات. وعلى أثر الإنقلاب الذي قام به ياهو حقق أنصار اليهوية التقليدية انتصاراً حاسماً لم يحل دون التمسك بالصيغ الدينية الممعنة (في الكنعانية)، في أسماء الآلهة (راجع آجرات السامرة) كما في الطقوس الممارسة في المشارف التي انصبت عليها صواعق تنبؤات عاموس وهوشع.

لم يكن في تصرف ملك إسرائيل إدارة متطورة كتلك التي في مملكة يهوذا، لذا اضطر إلى أن يعطي مدراء الولايات وحكام المدن استقلالية ذاتية كبيرة. وكان النظام الاجتماعي، لإسناده الأراضي إلى الموظفين الكبار وإلى القادة العسكريين

وقربه من النظام الإقطاعي الكثير من تصرف الطبقة الحاكمة التي كانت، شيئاً فشيئاً، تتملك أراضي المزارعين الذين هم عادة في كفاية ذاتية متشبثون بأرضهم الموروثة. وفي أيام آحاب وياربعام الثاني وفرت التجارة مع فينيقيا ازدهاراً اقتصادياً لا ينكر ولكن ذلك عاد بالنفع بصورة أساسية على الطبقة الحاكمة وعلى التجار، وكان البذخ الذي تنعم به العاصمة ناشئاً عن استغلال المزارعين (عاموس 8، 4-6). وهذا الظلم الاجتماعي ندد به بعنف نبي مثل عاموس الذي كان يرى في هذه الممارسات نذير كارثة قومية.

الفصل الخامس



كانت مملكة يهوذا، على مدى ما يقرب من قرن، تتصدى للقوة الآشورية، هذا ما عدا ثورة حزقيًا التي كان من نتائجها حملة سنحاريب، فاختار قادة مملكة يهوذا الإذعان وحالة التبعية لآشور لكي ينقذوا وبقدر الإمكان هويتهم القومية.

بدأت سياسة الإذعان هذه في عهد آحاز (حوالى 735/ 734ـ719) وفهم آحاز، على غرار أبيه يوتام (حوالى 749ـ739ـ735/ 734) أن الائتلاف ضد الآشوريين محكوم بالفشل ورفض أن يستسلم لضغوط رصين ملك دمشق وفاقح ملك إسرائيل. وكان من نتيجة الحرب السورية الإفرائيمية والتدخل العسكري لتغلات فلاسر الثالث سقوط دمشق 732، وهنا وافق آحاز على الإقرار بالتبعية لملك آشور (ملوك ثانٍ 16، 8-10). صحب هذا الخضوع السياسي بعض التساهل فيما يخص العبادات الغريبة (ملوك ثانٍ 16، 10-20). وكان آحاز قبل ذلك، وعلى الأرجح منذ حصار أورشليم، قد أجاز ابنه في النار (ملوك ثانٍ 6، 3).

إن هذا الموقف الإستسلامي للغريب والتمازج الديني والتساهل في التجاوزات الاجتماعية ندَّد بها النبيّان ميخا وأشعيا تنديداً شديد اللهجة. ووفرت هذه الانتقادات العنيفة جواً مؤاتياً للتعبير السياسي الذي حاوله حزقيا.

ومنذ سنة 727 على الأرجح التي فيها عيَّن تغلات فلاسر الثالث حزقيا ولياً للعهد (727-719-699). ودشَّن حزقيا عهده متأثراً ربما بالنبي أشعيا، بإجراء إصلاح ديني وإداري هام وكان يهدف بذلك إلى غاية مزدوجة: العودة إلى صفاء التقاليد اليهودية القديمة والتوحيد الديني ليهوذا مع شعب مملكة السامرة القديمة.

ومن أجل تحقيق عمل التوحيد الديني هذا أزال حزقيا جميع أماكن العبادة التقليدية ما عدا هيكل أورشليم. وحطم الأنصاب والمشارف واقتلع الأشجار المقدسة وسحق حية النحاس التي كان موسى قد صنعها (ملوك ثانٍ 18، 4). وصحب هذا الإصلاح المقترن بإعادة تنظيم وظائف الكهنة واللاويين في هيكل أورشليم (أخبار ثانٍ 31)، ودعوة موجهة إلى إسرائيليي مملكة الشمال القديمة ليأتوا ويحتفلوا بالفصح في أورشليم (أخبار ثانٍ 30). وأكثر من ذلك أمر حزقيا، من أجل تسهيل إعادة التوحيد الديني حول أورشليم، بجمع التقاليد الأدبية في الشمال لصهرها مع تقاليد أورشليم (أمثال 25، 1 إرميا وتثنية الاشتراع).

ترافق التوحيد الديني الجديد مع إصلاح إداري شمل، بنوع خاص، جمع العشر الخاص بالهيكل وبالمخازن وبأهراء المملكة. يجب أن يُحمَل العشر من الآن فصاعداً إلى هيكل أورشليم (أخبار 31، 5): وبفضل هذه المركزية كان تحصيل العشر يوفر فائضاً غزيراً بعد توزيع ما يحتاجه الكهنة واللاويون. وهكذا تسنى لحزقيا أن يتصرف باحتياطي عظيم من القمح والخمر والزيت الذي كان يستخدمه إمَّا في التجارة العالمية مع فينيقيا ومصر وإمَّا كمؤونة للجيش في زمن الحروب. بهذه الإهراءات الملكية التي تصب فيها أيضاً غلال ممتلكات التاج، يجب على الأرجح ربط الجرار التي تحمل الدمغات الملكية، مع أسماء المدن: حبرون، زيف، سوكوح (Sokoh) أو ممشاط.

تابع حزقيا، في عهد الملك سرجون الثاني (721-705) السياسة الخارجية التي كان يتبعها أبوه آحاز محاذراً الاشتراك بمختلف التحالفات التي أنشئت لمقاومة الآشوريين والتي آلت جميعاً إلى الفشل.

ففي سنة 712 قمع ترتان قائد جيش سرجون الثاني ثورة عازوري وسقطت فلسطين بالرغم من السعي إلى الدعم المصري (الحوليات الآشورية وأشعيا 20) غير أنه عند موت سرجون الثاني (705) ظنَّ حزقيا أن الفرصة مؤاتية: وترأس، بالرغم من تحذيرات أشعيا، تحالفاً ضد الآشوريين يجمع غزه وأشدود وصور وآدوم ويهوذا يدعمه الفرعون ساخاو (Shakaho).

ولكي يضمن نجاح هذا العصيان بطريقة أفضل اتصل بميروداك بلادان الثاني لتحريض بابل على مساعدة عيلام (ملوك ثان 20، 12-19). ولكي يفرض

حزقيا هذا التحالف على المترددين هاجم فلسطين، حرض شعب عقرون (Eqron) وأسر ملكهم فادي (Padi) الذي رفض الإنضمام إلى التحالف. ومع اقتراب الجيوش الآشورية هبَّ حزقيا يعمل على بناء الحصون وخاصة في أورشليم فحفر البركة وقناة سِلوى (Siloé) اللتين كانتا تؤمنان المياه في حال الحصار (نقش سِلوى وملوك ثانٍ 20، 20). وحصن الأسوار بأبراج وأمر بصنع كمية هائلة من السلاح (حراب ومجانّ) (أخبار ثانٍ 32ـ2؛ أشعيا 22، 8).

ويعد أن أجبر سنحاريب ملك آشور (704-681) ميروداك بلادان على الهروب في معركة كيش سنة 704 شرع في تحطيم التحالف الموجه ضد آشور والذي يتزعمه حزقيا فجهز لذلك حملة روتها مدونات آشورية كثيرة (منها نقوش تروي احتلال لاكيش) وتحدثت عنها قصص توراتية موازية (ملوك ثانٍ 18، 17ـ19؛ 36؛ أخبار ثانٍ 32، 1-22؛ أشعيا 36، 1ـ37، 37) وذكرته رواية مصرية نقلها هيرودوت (تاريخ II، 143).

احتل سنحاريب أولاً المدن الفينيقية ونصَّب إيتوبعل ملكاً على صيدون محل لولِّي الذي هرب؛ وهكذا استسلم سائر ملوك فينيقيا كما استلم ميتنتي ملك أشدود وفوذويلي ملك عمون وكُمُوسُناذبي ملك مؤاب وأيارامّو ملكُ آدوم وقدموا الجزية لسنحاريب. ودخل هذا الأخير إلى فلسطين حيث، بعد أن عزل صدقيا ملك عسقلان، هزم جيشاً مصرياً آتياً لنجدة التحالف في سهل إلتقاح (Eltéqéh). ثم احتل عقرون وذبح أشرافها وأسر قسماً من سكانها.

وعندئذٍ هاجم سنحاريب مملكة يَهُوَذا مباشرة: حاصر بأكثرية جيوشه، لاكيش وحصن شيفلاح (Shéphelah) في حين احتلت مفرزة كبيرة جت وأصيقاح (Azéqah) وتقدمت بقيادة ترتان تعرض الإستسلام على حزقيا (ملوك ثانٍ 18، 17...). وكان حزقيا ربما رضي بتحرير فادي Padi ملك عقرون (Eqron) ولكنه عملاً بنصيحة أشعيا، رفض الاستسلام دون قيد أو شرط. حمل الوفد هذا الخبر إلى سنحاريب الذي تقدم لحصار لبنه (Libnah) بعد أن احتل لاكيش. وعندئذٍ وفيما كان جيش مصري يتقدم بإمرة طاهرقا، انسحب سنحاريب على عجل من فلسطين وذلك على الأرجح، لأن الطاعون انتشر في جيشه (راجع «ملاك يهوه» ملوك ثانٍ 19، 35 و«جرذان» هيرودوت). وبادر

حزقيا إلى إرسال سفارة إلى نينوى ليقدم خضوعه ويؤدي جزية من ثلاثين وزنة (Talent) من الذهب و800 وزنة من الفضة. بالرغم من هذه النهاية غير المتوقعة التي لم تلحق أي أذى بأورشليم فإن حملة سنحاريب سنة 701 كانت ضربة مفجعة لمملكة يهوذا التي تدمرت أكثرية مدنها وقد أكد هذا التدمير الحفريات الأثرية خاصة في لاكيش. وعلاوة على ذلك فإن القسم الغربي من أرض يهوذا وضع تحت إشراف ميتنتي ملك أشدود وفادي ملك عقرون وسِلِّيبِلْ ملك غزة، مكافأة لهم على إخلاصهم لسنحاريب. وبعد أن بدأ حكم حزقيا بأعرض الآمال انتهى بكارثة ولم يلبث أن مات بعدها بقليل.

ترافق عهد منسَّى بن حزقيا الطويل الأمد (حوالى 699-645) مع ازدهار السلطة الآشورية بقيادة أسرحدون (680-669) ثم آشور بانيپال (669-630). والظاهر أن منسَّى ظل تابعاً أميناً لآشور، ففي سنة 677 بعد احتلال صيدون ذكر بين ملوك سوريا ـ فلسطين الإثني عشر الذين أدوا الجزية. وبعد الحملة المخيفة التي جهزها سنحاريب مارس منسَّى سياسة التهدئة في الداخل وعلق الإصلاح الديني الذي قام به حزقيا متغاضياً عن العبادات الغريبة. وليس من المعقول أن يكون قد باشر في نهاية عهده، تجديداً عسكرياً ودينياً (أخبار ثانٍ 33، 14. . .) باتخاذه تدابير إصلاحية على علاقة على الأرجح بثورة شمس ـ شوم ـ أوكين في بابل. ولكن بابل سقطت سنة 648 وهلك شمس ـ شوم ـ أوكين في قصره. وإذ قلق منسَّى لكونه أعد لثورة، اضطر أن يبرر نفسه أمام آشور بانيپال الذي عفى عنه (أخبار ثانٍ 33، 10. . .).

ولم يحكم عمون بن منسَّى سوى بضع سنوات (حوالى 645؟ـ640) اتبع سياسة الإذعان لآشور وربما بسبب هذا الموقف الاستسلامي اغتاله «عبيده» (ملوك ثانٍ 21، 23). تدخل مجلس الشعب (شعب الأرض) حينئذٍ للاقتصاص من المجرمين وأعلن يوشيا بن أمون ملكاً، وكان عمره ثماني سنوات (640-609). والظاهر أن اتبع هذا أولاً سياسة أبيه الموالية لآشور. لكن موت آشور بانيپال سنة 630 والحروب الأهلية والغريبة التي تلتها سمحت لمملكة يهوذا بترسيخ استقلالها.

وفي سنة 622 يعود يوشيا إلى الإصلاح الأساسي الذي قام به جده حزقيا

ونشر سفر تثنية الإشتراع (ملوك ثانٍ 22ـ23). وأزال كل أثر للعبادات الخارجية ودمّر المشارف وأماكن العبادة غيرمعبد أورشليم (بيت إيل) ودعا إسرائيليي الشمال إلى الحج إلى أورشليم للاحتفال بعيد الفصح (أخبار 2، 34ـ35). واستناداً إلى بعض الأدلة وخاصة آجرّة ميصاد هاشافيا، بسط يوشيا سلطانه السياسي على قسم على الأقل من مملكة إسرائيل وعلى شاطىء فلسطين وقد اتخذ لخدمته بعض المرتزقة اليونان. ومن تفسيرات هذا التوسيع لمملكة يهوذا انهيار الإمبراطورية الآشورية وسقوط نينوى سنة 612. غير أن الفرعون نيخاو الثاني (610-595) تدخل لمساعدة آخر ملوك آشور، آشور أوبلّيت الثاني، الذي قاوم البابليين في حرّان (نبو پولاسّر). ويوشيا الذي لم يكن يريد نهضة آشورية بمقدار ما لم يكن يريد حماية مصرية حاول التصدي لزحف الجيش المصري عند معبر مجدُّو لكنه قتل (ملوك ثانٍ 23، 29 . . .) إن موته المبكر في منتصف حزيران/ يونيو سنة 609 وَسَم بداية عصر مضطرب انتهى بسقوط أورشليم سنة 587.

وعند موت يوشيا أعلن مجلس الشعب (شعب الأرض) إبنه الثاني يوآحاز ملكاً ولكنه لم يحكم سوى ثلاثة أشهر: «قيده نيخاو بالسلاسل في ربلة من أرض حماة . . . وغرّم البلاد بمئة قنطار فضة وعشرة (؟) قناطير ذهب وعين إلياقيم بن يوشيا ملكاً مكانه. وغير اسمه إلى «يوياقيم» (ملوك ثانٍ 23، 33ـ34).

وخلال السنوات الأولى من حكم يوياقيم (609-598) الابن البكر ليوشيا اعترف هذا بالسيادة المطلقة لمصر ودفع الجزية وفرض على الأرض ضريبة (ملوك ثانٍ 23، 35). وبعد قليل حلت الإمبراطورية البابلية الجديدة محل الإمبراطورية الآشورية: ففي أيار/ حزيران ـ (مايو/ يوليو) سنة 605 تغلب نبوخذنصر على المصريين في كركميش وسقطت سوريا وفلسطين ضمن منطقة النفوذ البابلي وعندما أصبح نبوخذنصر الثاني ملكاً (604-562) جهز عدة حملات على سوريا وفلسطين (سقطت عسقلان سنة 604) وخضع له يوياقيم ثلاث سنوات. وعلى أثر فشل نبوخذنصر في مصر (601-600) وبالرغم من معارضة النبي إرميا ثار (يوياقيم) على بابل. وإذ كان نبوخذنصر مشغولاً بإعادة تعبئة جيشه اكتفى بأن «يوجه إلى يوياقيم غزاة الكلدانيين وغزاة آدوم وغزاة مؤاب وغزاة بني عمون) لمناوشة مملكة يهوذا. (ملوك ثانٍ 24، 2). وتسارعت الأحداث في كانون الأول/

ديسمبر سنة 598 : فيما كان نبوخذنصر يجمع جيوشه ويتجه نحو فلسطين، نحو أورشليم بالذات، يموت يوياقيم، وعلى الأرجح يقتل فيحل محله إبنه الفتى يوياكين الذي لم يحكم سوى ثلاثة أشهر (كانون الأول/ ديسمبر 598 ـ آذار/ مارس سنة 597). وإذ ترك نبوخذنصر الأدوميين يحتلون رامة الجنوب (Ramat-Néjeb) وكل الجنوب (Négeb) (راجع آجرات أرواد) زحف هو نفسه رأساً على أورشليم. وبعد حصار قصير يستسلم يوياكيم في 16 آذار/ مارس 597 (2 آذار) وهو تاريخ يحدده ثبت الوقائع البابلية، نقل يوياكيم إلى بابل مع أعيان البلاط والوجهاء والحرفيين وهم تقريباً حوالى 10000 شخص (ملوك ثان 24، 10ـ16). وبعد أن نهب نبوخذنصر كنوز الهيكل والقصر الملكي نصَّب ملكاً على أورشليم مَتَّنيا أحد أعمام يوياكين الذي اتخذ اسم صِدْقيًا.

خرجت مملكة يهوذا من هذه الثورة بحالة ضعف شديد. انتقل الجنوب (Négeb) إلى الهيمنة الآدومية وسبى الملك يوياكين إلى بابل، وظهر صدقيا -587) 597 ملكاً ضعيفاً يوجهه الضباط الذين يحيطون به. وفي سنة 594 على الأرجح وعلى أثر حركة تمرد في بابل وارتقاء الفرعون بْسَامْتيك الثاني عرش مصر (حوالي 589-593) ارتسمت معالم تمرد في أورشليم بالاشتراك مع آدوم ومؤاب وبني عمُّون وفينيقيا (إرميا 27، 28). ولكن أخيراً وبتأثير من إرميا، ربما، يفضل صدقيا أن يبعث بسفارة إلى بابل ليطمئن نبوخذنصر إلى إخلاصه (إرميا 51، 59) غير أنه على أثر غزوة قام بها بسامتيك الثاني إلى فلسطين (حوالى 592)، ثم ارتقاء الفرعون خفرع العرش (حوالى 589-570) «تمرد صدقيا على ملك بابل، وعلى الأرجح، بمعاونة العمونيين (ملوك ثانٍ 24، 20). وللحال أسرع نبوخذنصر وضرب حصاراً على أورشليم (15 كانون الثاني/ يناير 588) كما حاصر لاكشي وعزيقة في شيفلاح (Shéphélah) (إرميا 34، 7). ويُقرأ الجو المضطرب في هذه المرحلة وانقسام الرأي العام اليهودي بالنسبة إلى موقف مواجهة الكلدانيين بوضوح في أجرَّات لاكيش وتنبؤات إرميا. وكان من نتيجة زحف الجيش المصري في مطلع سنة 587 أن رفع الحصار مؤقتاً إرضاء للحزب المعادي لبابل: وتأجل التحرير الذي وعد به العبيد وقت الخطر إلى وقت لاحق وأودع إرميا السجن (إرميا 34، 37). لكن جيش الفرعون خفرع دُحر واستؤنف حصار أورشليم على أشد ما يكون فسبب المجاعة داخل المدينة. وفي التاسع من تموز (تقويم بابل

=29 تموز/ يوليو 587) فتحت ثغرة في سور المدينة. عندئذٍ حاول صدقيّا الخروج ليلاً باتجاه الأردن وأرض بني عمون لكن البابليين ألقوا القبض عليه في أريحا.

وقمعت الثورة قمعاً رهيباً: سُملت عينا صدقيّا بعد أن رأى أولاده يذبحون أمام عينيه. ثم اقتيد أسيراً إلى بابل. وأحرق نبوزراذان، قائد الحرس الشخصي لنبوخذنصر، الأبنية الأساسية في أورشليم مثل الهيكل والقصر الملكي (في 7 أو 8 آب/ أغسطس 587). ودكت الأسوار وجُلي ما تبقى من سكان أورشليم. أما ما تبقى من الشعب في البلاد فجعل عليه نبوخذنصر جَدَلْيا ملكاً: وهو الوزير الأول في الحزب الموالي لبابل والمقرَّب من إرميا. فاتخذ هذا الملك مكاناً لإقامته في المصفاة على بعد حوالي عشرة كيلومترات شمالي أورشليم. وفي تشرين الأول/ أكتوبر 587 قتل جدليا على يد إسمعيل أحد الأنسباء الأمراء الذين كان قد لجأ ولقي الدعم من بعلين ملك بني عمون. وعلى أثر هذه الجريمة يفتك إسمعيل بجميع الهيئة الحكومية في المصفاة ويعود أدراجه إلى بني عمون بينما الذين نجوا من يده، ومنهم إرميا، لجأوا إلى مصر (ملوك ثانٍ 25، 22ـ26؛ إرميا 40ـ44).

ويفسر استمرار مملكة يهوذا مئة وخمساً وثلاثين سنة بعد سقوط السامرة بالاستقرار الداخلي المتين وبسياسة الخضوع للامبراطوريتين الآشورية والبابلية. وكان كل تمرد، في ظل الموقف الدولي، عبثياً ومن شأنه أن يجر إلى تدمير المملكة. والذي حدث، في الواقع، سنة 587، أوشك أن يحدث سنة 701 و609 و597. وكان التمرد الأخير من المأساوية بحيث إنه ضاعف الفوضى الداخلية على غرار ما حدث عند سقوط السامرة.

لا نملك سوى القليل جداً من المعلومات عن أوضاع الإسرائيليين في المنفى أو في الولايات الآشورية ثم البابلية، في السامرة وجلعاد ومجدُّو ودور. وتشير بعض الكتابات الآرامية المتفرقة وبعض الألواح المسمارية إلى أن الوثائق الرسمية التي كانت تستخدمها الإدارة كانت محررة بالأكّادية المسمارية أو بالآرامية الأبجدية. ولم تبقَ العبرانية، إلاّ كلغة شعبية، فالنفي شمل، على الأخص، الطبقات الحاكمة.

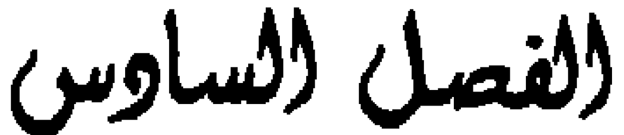
شملت النهضة القومية، في عهد حِزْقيّا، تحوّل البنى الاجتماعية. وكما حدث في السامرة، تكدّست الثروة في أيدي أبناء الطبقة الحاكمة، وأثار هذا

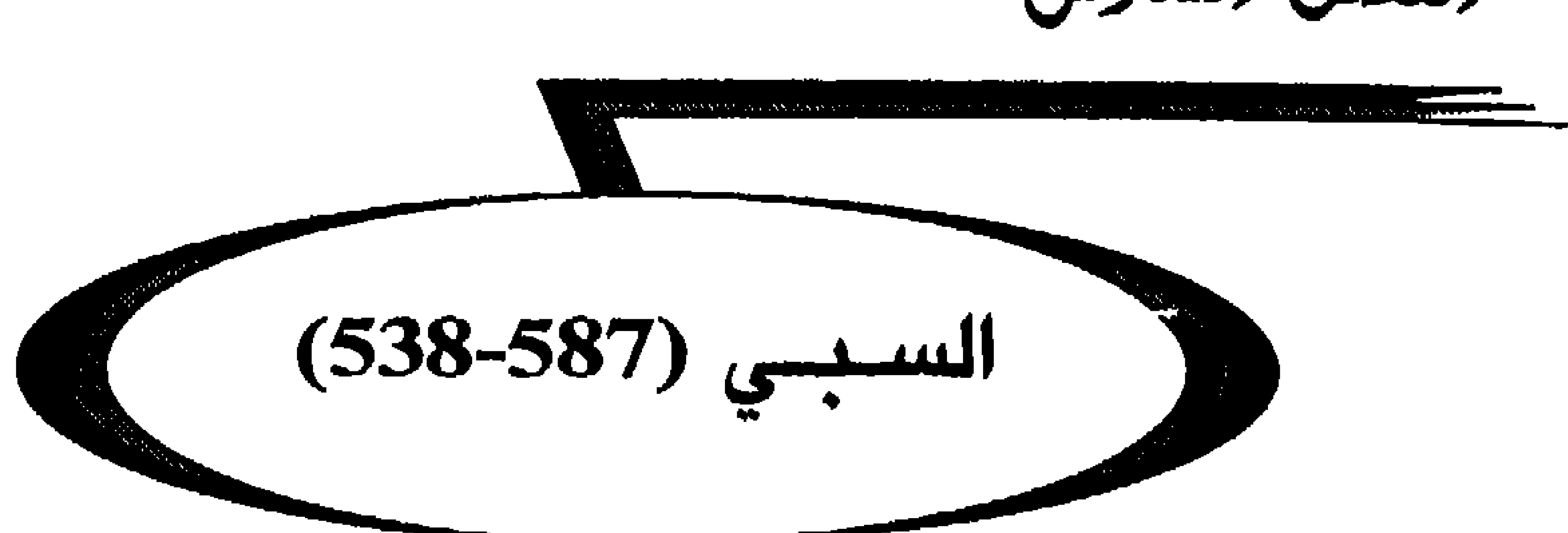
الاستئثار بالممتلكات، بالأرض خاصة، احتجاجات شديدة اللهجة من قبل النبيّين أشعيا وميخا (أشعيا 3، 14؛ 5، 8؛ ميخا 2، 1-2).

وعرفت مملكة يَهُوَذا، مع الإزدهار وغلاء الممتلكات الملكية، في أواخر القرن الثامن، ميلا إلى زوال الأملاك العائلية الصغيرة التي اشتراها الملاكون الكبار.

ترافقت هذه الظاهرة الاقتصادية مع كثافة سكانية في المدن، كثافة زادها مجيء اللاجئين من مملكة السامرة القديمة. وعرفت العاصمة حينئذٍ توسّعاً عظيماً مع ازدهار حيٍّ جديد هو المشناح، أحيط فيما بعد بسور جديد. وأدّت مركزية الإصلاح الذي قام به حزقيّا وبعده موشيًّا إلى زيادة كبيرة في عدد الموظفين (اللاويين) المقيمين في أورشليم. غير أن إدارة مختلف الإهراءات الملكية كانت تتطلب المزيد من وجود الموظفين في الحصون القريبة من الحدود، وتتيح آجُرّات آراد (Arad) الوقوف على حسابات توزيعات الإهراءات الملكية على فئة من المرتزقة اليونان سنة 598/ 597.

ازداد هذا التطور الاجتماعي خطورة بسبب مساوىء الاستبداد الملكي وخاصة في عهد يوياقيم. وتوحي نبوءات إرميا (إرميا 22، 13؛ 34، 16-17) بوضع اجتماعي متردٍّ لم يكن يضمن سلامة طبقة الخدم ـ العبيد تجاه استبداد الملك والطبقات الحاكمة ويؤدي اتساع الهوة بين الطبقات الاجتماعية إلى مزيد من التفهم لبعض مظاهر تاريخ الشعب أثناء السبي وبعده.





يعتبر الإستيلاء على أورشليم وتدمير الهيكل والفتك بالحاكم المؤقت جَدَلْيا سنة 587 منعطفاً أساسياً في تاريخ الشعب اليهودي. لقد وجد هذا الشعب نفسه مقسوماً بعد هذا التاريخ إلى قسمين: قسم ظل في بلاده وقسم سُبِي إلى أرض غريبة. فهؤلاء وأولئك لم يعد لديهم دولة وكانوا معرضين لخطر الزوال من التاريخ كأمة متميزة. كان هذا الخطر حقيقياً، إذ ظل تاريخ الشعب اليهودي، أثناء مرحلة السبي، مجهولاً تماماً بسبب فقدان الوثائق التاريخية المعاصرة.

I ـ الشعب الذي ظل في بلاده

وتلا مقتل جدليا مقاومة العمونيين والمؤابيين للجيوش البابلية، مقاومة لم تحطم إلاّ سنة 582 مع ترحيل عدد كبير من العمونيين والمؤابيين وبعض اليهود الذين انضموا إلى الثورة (إرميا 30,52). وفضلاً عن ذلك، فبعد ثلاث عشرة سنة من الحصار، توصل نبوخذنصر إلى الإستيلاء على صور (حوالي 573؛ حزقيال 29، 17؛ راجع 25-28).

إن زوال الكيان السياسي اليهودي أتاح للأدوميين احتلال قسم كبير من مملكة يهوذا، وسرعان ما استغل الأدوميون، حلفاء الكلدانيين هذه الفرصة المتاحة إلى درجة أنهم تلقوا هم أنفسهم ضغوط القبائل العربية الشمالية وخاصة قبائل اتحاد قيدار الذي كان في ذروة توسعه. وهكذا لقد احتل الآدوميون القسم الأكبر من النقب (الجنوب) منذ سنة 597 وقد سمحت لهم بالتالي حملة نبوخذنصر سنة 587-588 مع الإستيلاء على لاكيش خاصة، أن يحتلوا جنوبي جبل يهوذا ومن شفالح (Shéphélah) حتى الخط الحدودي الذي يتضمن في الأرض الآدومية

مدن لاكيش وحبرون وعين جدي.

ولم تُبقِ المعارك المدمرة والسبي الجماعي على أرض يهوذا التي تقلصت حدودها سوى شعب قليل العدد من المزارعين المرتبطين بالأرض التي يجنون منها قوتهم. إن أكثر المدن تقريباً فد دمر، واضطر الذين ظلوا في وطنهم إلى أن يتحولوا إلى العمل في الأرض وكانوا يدَّعون ملكية حقول الذين تواروا كما يذكر إرميا 39، 10.9.

وبعد مقتل جدليا أتْبع البابليون، ربما، هذا الشعب المبدد في الأرياف، بمقاطعة السامرة، مكوّنين هكذا وحدة ما للشعب العبراني، ولكن يا لحالتهم! أذلاّء تدب الفوضى في صفوفهم يحتلهم ويهيمن عليهم البابليون. ويصف سفر المراثي بطريقة رائعة محنة الشعب العبراني الذي لم يبقَ له من مَعْلم سوى خرائب الهيكل التي ظل يحاول الاجتماع عليها للاحتفال بتقديم القرابين غير الدامية: التقادم والبخور (إرميا 41، 5).

II ـ المبعدون

يمثل اليهود المنفيون في السنوات 597 و587 و582 نخبة الشعب، طبقاته القيادية (أعياناً، موظفين كباراً) وعماله المتخصصين (الحرفيين). وقد يكون عدد الذين نفوا سنة 597 قد بلغ 10000 (ملوك ثانٍ 24، 14، 16). ويمكن تخمين اعتبار مجموع موجات السبي الثلاث بـ 20000 شخص على الأقل ومن ضمنهم النساء والأولاد. وعلى عكس ما حدث لسبايا الأشوريين، فإن هؤلاء السبايا لم يوزعوا في كل مكان ولكن جمعوا في تجمعات أو قرى في بابل. ويأتي النبي حزقيال على ذكر تل أبيب «تلة الربيع» بالقرب من نهر كِبَار (حزقيال 3، 15) أحدى الأقنية البابلية الكبيرة. (حزقيال 1، 1. . .) ويمكن أيضاً ذكر «تل الملح وتل حَرْشا وكروب وـ أدّان وإمّير» (عزرا 2، 59؛ نحميا 7، 61) الموجودة على الأرجح في وسط بابل ليست بعيدة عن بابل العاصمة وعن نيبور.

وفر تجمع المنفيين لهم حياة جماعية إلى حد ما. وكان بإمكانهم أن يجتمعوا بسهولة وينتظموا حول شيوخهم ويصغوا إلى أنبيائهم ويظلوا على اتصال، بالبريد، مع من بقي في الوطن، على الأقل حتى سنة 587. وإذ كان رئيسهم

الشرعي، الملك يوياكين، أسيراً كان النبي حزقيال الزعيم الروحي للمنفيين يستثير شجاعتهم ويندد بآمالهم العبثية بعودة سريعة إلى وضعهم السابق، ناقداً أخطاءهم العابرة محرّضاً إيّاهم على العودة سراً إلى يهوى الموجود بينهم (حزقيال 1). ومن أورشليم كان إرميا يرسل رسالة مشابهة طالباً إلى المنفيين ألاَّ يصغوا إلى آمال عبثية، ولكن عليهم بالأحرى أن يتوقعوا نفياً طويل الأمد: «ابنوا بيوتاً واسكنوها، اغرسوا جنات وكلوا من ثمارها، اتخذوا نساء ولدوا بنين وبنات واتخذوا لبنيكم نساءً واجعلوا بناتكم لرجال وليلدن بنين وبنات. واطلبوا سلام المدينة التي أُجليتم إليها وصلُّوا من أجلها إلى يهوه: بسلامها يكون لكم سلام» (إرميا 29، 5 ـ 7).

وتكثف هذه الأوامر الواقعية منذ عملية التهجير الأولى سنة 597، عن أن المبعدين كانوا من ذوي الجرأة والإقدام؛ البعض جمعوا ثروة في التجارة أو في الإدارة العليا. وبعد أن تلقت أكثرية المنفيين إعداداً جعلهم مؤهلين لشغل وظائف في التجارة أو في الإدارة أو الحصول على مهنة اختصاص نادر، استطاعوا أن ينالوا مركزاً في مجتمع اقتصادي في ذروة تطوره. غير أنهم ظلوا يتمتعون بشعور قوي بعودتهم ذاتِ يوم إلى وطنهم. وهو أمل بعيد المنال تعهده الأنبياء (إنما تعني القيامة القومية ما تعنيه العظام الجافة، حزقيال 37).

هذا الشعور القومي وهذا الأمل بالتجديد كان يزكّيه تجمع المبعدين حول قادتهم: ممثل ذرية داود و«شيوخ إسرائيل» والكهنة.

ـ كان الملك يواكين، الذي أبعد سنة 597، يعتبر الملك الشرعي؛ وكان المبعدون يحيّون تحريره من السجن في نيسان/إبريل سنة 561، بعد تسلم أويل ـ مردوك العرش، كبشير بتجديد قومي لا سيما وأنه صار ليواكين وعائلته بعد الآن مقام مقرب من البلاط البابلي (ملوك ثانٍ، 25، 27) وكرد جميل على هذا التحرير ربما أطلق يواكين أسماءً بابلية على بعض نسله.

ـ كان «شيوخ إسرائيل» القادة التقليديين للمبعدين. وكان هؤلاء يحتفظون، أكثر الأحيان، بتنظيمهم العائلي الموسّع أو العشائري أو القبلي، مع إشارة خاصة إلى مسقط رأسهم.

ـ اعتبر كهنة أورشليم، الذين أبعدوا بكاملهم تقريباً بالطبع أنفسهم

كسلطات دينية مؤتمنة على التقاليد الإسرائيلية. وليس من قبيل الصدفة أن يكون أحدهم، حزقيال «بن الكاهن بوزي» (حزقيال 1، 3) قد ظل بالنسبة إلى الأجيال الآتية، الزعيم الروحي للمبعدين. لم يكن للكهنة ما يشغلهم في الهيكل أو في تقدمة القرابين فجعلوا أنفسهم حراس تعاليم التقليد الإسرائيلي إزاء سائر المبعدين. وقد حددوا لهذه الغاية نوعاً من «الملخص» أو من التعليم الديني: التاريخ والشريعة الكهنوتيان. كانوا يركزون بنوع خاص على الطقوس التي تميز الجالية اليهودية عمن يحيط بها: الختان والحلال والحرام من الطعام، والأعياد. وأتاح لهم احتكاكهم بعلم التنجيم البابلي أن يقترحوا روزنامة جديدة، «الروزنامة التقليدية» وهي أدق من الروزنامة القمرية التقليدية. وابتداءً من إصلاح التقويم هذا، ربما، نقلوا تاريخ «السبوت»، الأعياد التقليدية المتعلقة بالبدر والمقترنة بأعياد القمر إلى عيد بطالة كل سبعة أيام متأثرين بروزنامة ما بين النهرين «للأيام الخطرة».

فحتى لو تبين أن كل اليهود الذين سباهم نبوخذ نصر أقاموا في بلاد بابل فلم تكن هذه البلاد هي الأرض «الغريبة» الوحيدة التي استقبلت اليهود. لقد لجأ هؤلاء إلى البلدان المجاورة: عمون، مؤاب آدوم، فينيقيا، فلسطين ومصر. إن مثَل الموظفين الهاربين من غارة إسمعيل (إرميا 41، 11. . .) يعطي الدليل على أن مصر، الحليف القديم، أصبحت ملجأ، خاصة بالنسبة إلى الموظفين الذين فقدوا عملهم. استخدم الكثير من الجماعات اليهودية كمرتزقة في مختلف المدن الحدودية المصرية مثل: مِجدول (في الجزء الأعلى من الدلتا) ودافْنِه وممفيس وأليفانتين (في «بلاد الجنوب»: إرميا 44، 1). وقد عرفنا أخبار حياة هذه الجالية الأخيرة فيما بعد، من الآجرات وأوراق البردي الآرامية.

وسرعان ما تغيَّرت الظروف الدولية للمنفيين واليهود الذين ظلوا في وطنهم. فبعد آويل - مردوك (561-560) وناريغليسار (559-556) تسلم نابونيد (556-539) الحكم في بابل ومارس سياسة دينية مبتكرة جاءت لمصلحة الإله سِنْ، إله القمر، الأمر الذي أثار معارضة كهنة مردوك البابليين. وبعدما احتل واحة تيماء ظل عشر سنوات في شبه الجزيرة العربية (حوالى (552-543) تاركاً حكم بابل في يد إبنه بلتازر. وأثناء هذا الغياب تسلم قورش ملك الفرس

السلطة في إكتابان (حوالي 550). وبعد أن تغلب على ملك ليديا كريسوس احتل عاصمته ساردیس (546/547). وعندما عاد نابونيد إلى بابل لم يستطع أن يواجهه إلاّ بمقاومة ضعيفة لأن غوبرياس حاكم غوتيوم انضم إلى معسكر قورش وأن قسماً من الشعب الذي يدعمه كهنة مردوك استقبل قورش كمحرر أشادت به نبوءات أشعيا (أشعيا 40-55). وفي 29 تشرين الأول/ أكتوبر من سنة 539 قتل بلتازر وأسِر نابونيد ودخل قورش ظافراً إلى بابل.

الفصل السابع

الإصلاح اليهودي في الإمبراطورية الفارسية (538-332)

ومنذ سنة 538 نشر قورش مرسوماً سمح فيه بعودة المنفيين إلى بلادهم وأمر بإعادة بناء هيكل سليمان على نفقة خزينة الملك. وأكثر من ذلك لقد أعاد آنية بيت الله من الذهب والفضة التي أخذها نبوخذنصر من هيكل أورشليم وأفضى بها إلى بابل (عزرا 1، 4-2؛ 6، 5).

وعلى أثر هذا المرسوم الذي ينسجم تمام الإنسجام مع سياسة التسامح الديني لدى الأخيمينيين. تسلم شِشْبَصّر «أمير يهوذا» الآنية المقدسة مع مهمة لبناء الهيكل. من أجل القيام بهذه المهمة خير قيام، نال لقب «والٍ» أو «حاكم» ولاية يهوذا (بالآرامية يهود مديناتا) (عزرا 3، 8-14). إن هوية شِشبصّر ليست مؤكدة تماماً ولكنه على الأرجح الابن الثاني ليوياكين المدعو شنّاصار (أو شِنصّر) (أخبار أول 3، 18) ولكن الأشغال سرعان ما توقفت نهائياً عند موت قورش. والواقع أن خلفه قمبيز (530-522) وجه كل ما يملكه من طاقات نحو فتح مصر 525.

وبعد موت قمبيز جرت حرب أهلية تسلم عرش فارس بعدها الملك داريوس (521-486) وأتاح هذا العهد فرصة عودة جديدة للمبعدين نحو أورشليم بقيادة زَرُبّابل بن شألتئيل الابن البكر ليوياكين المدعو «حاكم يهوذا» أو يشوع بن يوصاداق الجد (حجاي 1، 1؛ عزرا 2، 2). أعاد زربابل وشألتئيل بناء الهيكل على أسسه القديمة. واستؤنف تقريب الذبائح والأعياد بشكل طبيعي، وبتشجيع من النبيين حجاي (ايلول/ سبتمبر ـ كانون الأول/ ديسمبر 521) وزكريا (تشرين الثاني/ نوڤمبر ـ كانون الأول/ ديسمبر 519)، شاهدي الحركة الدينية والحماسة للهيكل. استعاد العائدون نشاطهم واستأنفوا بناء الهيكل (عزرا 3). وبما أن

خزانة بيت المال الملكي كانت تسهم في هذا البناء قام حاكم عبر النهر (نهر الفرات) بتحقيق. وطلب إثباتاً لأمر البناء الصادر عن داريوس. وصدق داريوس، انسجاماً مع سياسته العامة، مرسوم قورش (عزرا 6، 7. . .) وتقدمت الأعمال بسرعة واستخدم أرز لبنان واليد العاملة المتخصصة الفينيقية (عزرا 3، 7). وبالرغم من أن هذا «الهيكل الثاني» كان أقل فخامة من هيكل سليمان. لقد انتهى العمل فيه في شباط ـ آذار/فبراير ـ مارس سنة 515 ودشن بمناسبة عيد الفصح من تلك السنة ذاتها (عزرا 6، 13ـ22). ظلَّت المرحلة التي تلت تدشين الهيكل غامضة. لقد انتشر مع بناء الهيكل أمل بتجديد مملكة يهوذا وعلى رأسها زربَّابل، سليل داود والكاهن الصدوقي يشوع (زكريا 3ـ4، 6). وقد تنبهت السلطات الفارسية على الأرجح وعملت على عدم تحقيق هذه الرؤيا. واستناداً إلى أختام ومصادقات نشرت حديثاً خلف حننيا أباه زربابل كحاكم على يهوذا. وما لبثت هذه الوظيفة أن انتقلت إلى إلناتان (Elnatan) زوج شلوميت بنت زربابل وأخت حننيا (أخبار أول 3، 19). وبدءاً بهذا التاريخ افلتت مهمة «حاكم يهوذا» من يدي سلالة داود. وتذكر لنا التواقيع حاكمين آخرين هما (يهو عازر وآحزاي) في النصف الأول من القرن الخامس.

وتشير الكتابات الآرامية الخاصة باليهود إلى أن هؤلاء الحكام قد أحسنوا تنظيم جمع الضرائب العينية: القمح والخمر والزيت (ملاخي 3، 8. . .) كانت الضرائب باهظة حتى إن الحاكم وغلمانه كانوا يحتفظون منها بقسم يدعى «خبز الحاكم» وهي عادة انتقدها نحميا (نحميا 3، 15).

وكان بإمكان هذه الضرائب، مبدئياً، أن تتيح تتمة أشغال تجديد أورشليم وتحصينها. ولكنها توقفت على الأرجح في بداية حكم أرتحششتا الأول (464-424) على أثر تدخل موظفين كبيرين من عبر النهر، هما رحوم صاحب القضاء وشمشاي الكاتب بحجة منع حصول تمرد (عزرا 4، 6ـ22).

ونجح نحميا بن ملكِيًّا، ساقي الملك، بمحاولة منه للتخلص من هذا الوضع، بأن يقنع الملك بإرساله إلى يهوذا حاكماً ومعه صلاحيات مطلقة لإعادة بناء أسوار أورشليم (445) (نحميا 1،2). وبمساعدة الكاهن الأعظم سنبلَّط الحوروني حاكم السامرة وطوبيا العموني حاكم بلاد بني عمون وجاشم العربي

ملك آدوم، رمم نحميا السور في اثنين وخمسين يوماً (نحميا 15,6). ثم نظم نحميا عملية السكن في أورشليم. إذ طلب أن يعين من القرى والمدن المجاورة رجل من كل عشرة رجال كمتطوعين ليسكنوا العاصمة (نحميا 7، 4؛ 11). وعندئذٍ قاموا بتدشين السور الجديد (نحميا 12، 27. . .) ومن أجل تخفيف وطأة المناخ الاجتماعي المثقل بهزال المواسم وجمع الضرائب وارتفاع الفوائد على القروض الذي أدى إلى بيع الناس لقاء دَينهم، أقنع نحميا الدائنين بالتخلي عن الديون بشكل كامل وخفف الضرائب إلى حدٍّ ما مُقْلِعاً عن فرض «خبز القائد» (نحميا 5).

وبعد أن استدعي نحميا إلى بلاط ارتحششتا سنة 433 عاد من جديد إلى أورشليم بعد عام تقريباً وعمل جاهداً على فرض احترام الشريعة بكل دقة. انتقد تصرفات الكاهن الأعظم إلياشيب لصالح قريبه الأقرب طوبيا حاكم أرض بني عمون (الذي فصل من الجماعة الإسرائيلية إستناداً إلى تثنية الإشتراع 23، 4) وأعاد تنظيم جمع العِشر لصالح اللاويين. وتصدى بقوة للزواج من أجنبيات وهي عادة بدأت في عائلة الكاهن الأعظم الذي تزوج أحد أحفاده من إبنة سنبلاّط الحوروني، حاكم السامرة (وكان هذا معتبراً «أشدودياً» أي «ابن حرام، ولد من زواج محرَّم وخاصة من أجنبي أو أجنبية» إستناداً إلى (زكريا 6 وتثنية الاشتراع 23، 3). وفرض أيضاً احترام السبت بإغلاقه أبواب أورشليم ليمنع كل تجارة في ذلك النهار (نحميا 13؛ تثنية 5، 12-15).

وتظل نهاية حكومة نحميا والمرحلة التي تلتها يلفهما الغموض. ونعرف بالاستناد إلى ورقة البردي رقم 30 في جزيرة الفيلة في مصر. أن «حاكم يهوذا» لسنة 407 كان يسمى باغوهي (أو باغواس) لأنه هو الذي استنجد به آدونيا (Yedonyah) وزملاؤه، كهنة «جزيرة الفيلة القلعة». ونعرف أيضاً من خلال تبادل المراسلات المتعلقة بقضية تدمير هيكل الفيلة (سيأتي ذكره) أن الكاهن الأعظم في أورشليم يدعى يوحانان (نحميا 12، 22) بينما كان حاكم السامرة كان يدعى ديلايا (Delayah) ابن سنبلاط. تكشف جميع هذه المراسلات مع السلطات المدنية والدينية في يهوذا والسامرة بوضوح عن مسائل يطرحها وجود عادات يهودية متقاربة فيما يخص العبادة والروزنامة والذبائح.

وفي هذا السياق تندرج مهمة عزرا. ويظل تاريخ هذه الزيارة موضوع نقاش: البعض يعتقد أنها تمت في السنة السابعة (عزرا 7، 8) للملك أرتحشستا الأول (464-424). لنفرض أنه في سنة 398، فهذا التاريخ يبدو الأكثر معقولية. في الواقع يبدو أن مذكرات نحميا وتقرير عزرا كانت متمايزة في البداية وأن النص العام والتفاصيل الكثيرة تشير إلى أن مهمة عزرا كانت بعد فترة حكم نحميا.

وإستناداً إلى المصطلحات الرسمية لفرمان أرتحشستا التي تؤكد هذه المهمة، فإن «الكاهن عزرا» كان «كاتب شريعة إله السماوات» (عزرا 7، 12) ولكونه كاهناً متخصصاً في نصوص الأعراف اليهودية استدعاه أرتحشستا ليجمع وينسق ويوحد مختلف التقاليد التي تمتُّ إلى العبادة بنوع خاص. وأصبحت السلطات الفارسية تمتلك بعد ذلك مرجعاً رسمياً مكتوباً في علاقتها مع الجماعة اليهودية في فلسطين وفي بابل وفي سائر الإمبراطورية الفارسية. إن رسالة كهذه تنسجم مع السياسة العامة للسلطات الفارسية، وفيها توازٍ دقيق في موقف داريوس تجاه التقاليد الدينية المصرية. وكانت المهمة من الإلحاح بحيث إن أرتحشستا كان يود لو يستطيع الإعتماد على شعب مستقر ومخلص في فلسطين بعد أن أصبحت مصر مستقلة سنة 401 وبعد أن انكشف ضعف الإمبراطورية الفارسية على أثر مسيرة «العشرة آلاف» يوناني الشهيرة.

ماذا كان المحتوى الصحيح «لشريعة إله السماوات» التي كان عزرا مكلفاً نشرها كشريعة لها قيمتها على الصعيد المدني (عزرا 7، 26)؛ إن مدار الكلام فيها هو على الكتب الخمسة الحالية (الكتب التي تدعى التوراة) الموحدة بواسطة النص الكهنوتي الذي وفق بين التقاليد القديمة (إرميا، تثنية الاشتراع) ومجموعة القوانين وخاصة الروزنامة الكهنوتية.

استعان عزرا، لكي ينجح في مهمته الدقيقة في التوحيد القانوني، بعدد لا يستهان به من العائدين وخاصة الكهنة واللاويين وقد حمل معه 650 (؟) قنطار فضة ومئة قنطار (؟) ذهب وآواني ثمينة (عزرا 8). استقبل عزرا بالترحاب بفضل الوفد الذي يحيط به وبسبب ما يحمل من هدايا فنشر الشريعة الجديدة في احتفال عام في اليوم الأول من الشهر السابع أي في عيد رأس السنة.

واحتفل الشعب بعد ذلك بعيد المظالّ (نحميا 8) ثم كان من الضروري الانتقال إلى التطبيق العملي للشريعة: فبعد صيام الاعتراف بالخطايا تقرر تسريح «الزوجات الغريبات» وهذا ما نُفِّذَ عشيرة وراء عشيرة بمراقبة الرؤساء التقليديين (عزرا 9، 10) وبالرغم من أن النصوص التوراتية لا تروي رسالة «وزير الدولة المكلف الشؤون اليهودية» كما كان عزرا، فإن هذه الرسالة حققت نجاحاً لأن «شريعة إله السماوات» لاقت القبول في مقاطعتي يهوذا والسامرة كما يؤكد ذلك المكانة التي حظيت بها الكتب الخمسة في التقليد اليهودي والسامري.

وتظل نهاية المرحلة الفارسية في فلسطين غامضة. ففي نهاية عهد أرتحششتا الثاني منيمون (404-359) تطور السياق الدولي للأحداث بسرعة وتميز بعصيان المرازبة في الغرب بدعم من مصر (367) ونجح أرتحششتا الثالث أوخوس (Ochus) (359-338) باستعادة السيطرة على المرازبة الغربيين ولكنه فشل في مصر (351-350) الأمر الذي أثار عصياناً فينيقياً، بقيادة تنّيس (Tennès) ملك صيدون. فقُمِع هذا العصيان بوحشية فأحرق أرتحششتا الثالث صيدون والأكثرية الساحقة من سكانها (345). وبعد ذلك ألحقت مصر من جديد بالإمبراطورية الفارسية (343/342)، ولكن أرتحششتا مات مسموماً بعد ذلك بعدة سنوات ولقي خلفه آرسيس (338-336) المصير نفسه. انتقلت السلطة إلى أحد أبناء شقيق أرتحششتا الثالث، داريوس الثالث كودومان (336-331) الذي اضطر ابتداء من سنة 336 إلى مواجهة جيوش الإسكندر الكبير (336-323) وبعد أن تغلب الإسكندر على الجيش الفارسي مجتمعاً في إيسوس سنة 333 حاصر مدينة صور التي استسلمت بعد حصار دام سبعة أشهر (كانون الأول/ ديسمبر 333 ـ تموز/ يوليو سنة 332). وربما أثناء هذا الحصار استطاع أن يحتل السامرة ويهوذا (332).

وربما اعتبرت مرحلة السيطرة الفارسية على فلسطين مرحلة سلام وفَّر الازدهار الذي تشهد عليه الإكتشافات الأثرية. وشهدت أرض يهوذا نمواً سكانياً عظيماً. وما زاد في النمو الطبيعي للشعب الذي ظل في وطنه جماعات مختلفة من المبعدين العائدين جاءت على دفعات متتالية. واستوطن أكثر العائدين، نظراً إلى غناهم ووضعهم الاجتماعي في المدن وخاصة في أورشليم والمدن المحيطة بها

مباشرة. إن إحصاء ولاية يهوذا الذي ذكر في عزرا 2، 1 ونحميا 7، 6 يتطابق مع الإحصاء الحقيقي الذي أجري في ظل حكومة نحميا. وإستناداً إلى أسماء القرى المذكورة فإن يهوذا لا تمثل سوى شريط قليل العرض من الأراضي حول أورشليم، ابتداء من أريحا من الشرق وانتهاء في اللد وأونو في الغرب (؟) ومن بيت لحم ونيتوفا في الجنوب إلى بيت إيل والعَيّ في الشمال. يبلغ تعداد السكان حوالى 50 ألفاً.

كانت ولاية يهوذا، إستناداً إلى ما جاء في سفر نحميا 3، 9. 12ـ18 مقسمة إلى قطاعات أو كانتونات تؤمن أعمال السخرة فيما كانت على الصعيد الإداري الأعلى، منذ أيام داريوس، تابعة للمرزبانة «الخامسة» التي تقع عبر النهر. إن الكتابات الآرامية المدرجة تحت عنوان يهود، مع أو بدون اسم علم ملحقة أو غير ملحقة بلقب الحاكم، تتحدث عن الضرائب العينية التي تجمعها إدارة الولاية بينما الكتابات التي تحمل فقط اسم الحاكم تشير إلى القسم المخصص للحاكم نفسه أو «خبز الحاكم». وإذا كانت الحكومة الفارسية متسامحة أو محترمة للتقاليد الدينية القومية، فإنها، عكس ذلك، كانت متشددة فيما يخص دفع الضرائب. فعلى حاكم كل ولاية أن يؤدي كل سنة مبلغاً محدداً للحكومة المركزية. وبالمقابل كانت خزانة الملك تساعد في تمويل الأشغال العامة الضخمة وخاصة في إعادة بناء الهيكل. وكانت هذه الرعاية للعبادة القومية تدعم سلطة الكاهن الأعظم الصدُوقي في أورشليم. وكان هذا الكاهن، بعد إبعاد السلالة الداودية عن مهمة الحاكم، يبدو كالممثل الشرعي الوحيد للتقاليد القومية وكان يقوي دوره السياسي ـ الديني عقود الزواج مع عائلات الحكام في الولايات المجاورة.

كانت اللغة الآرامية هي اللغة الرسمية للإدارة الفارسية في الولايات الغربية. وسرعان ما ازدهرت الكتابة واللغة الآراميتان إلى درجة أن الإدارة في ولاية يهوذا كانت في أيدي العائدين من بابل الذين كانت اللغة التي يستعملونها هي الآرامية. وكانت المدونات في هذه المرحلة، وخاصة الآجُرّات، مكتوبة باللغة الآرامية. ولم توجد الكتابة العبرانية القديمة، سواء في يهوذا أو في السامرة، إلاَّ في بعض الأختام. غير أن اللغة العبرانية ظلت متداولة بين الأقلية من سكان

القرى. وعلاوة على ذلك ظلت الكتابة العبرانية مستعملة في نسخ النصوص القديمة. وإنه ربما بعد مهمة عزرا على الأرجح، في سنة 398، ومن أجل تسهيل قراءة الشريعة لموظفي الإمبراطورية الفارسية، بدأ استعمال الكتابة الآرامية في نسخ النصوص التوراتية. وقد سميت هذه الكتابة، فيما بعد، (العبرانية المربعة).

كان التميز اللغوي يتلاءم، في جزء منه، مع الفرق في الطبقة الاجتماعية. وكان العائدون الذين تخلّقوا، إلى حد ما، بالأخلاق الآرامية، يكرهون وأحياناً يبتزُّون (نحميا 3، 15) الفئة القليلة من الشعب التي ظلت في الوطن، والشعب السامري المتهم، بأنه من أصول مختلطة. وأصبحت هذه التشنجات الاجتماعية حادة وخاصة عندما بدأ عهد نحميا. غير أن المواجهة اليهودية ـ السامرية يجب ألاّ يُبالَغ فيها: ففي تلك المرحلة كانت رسائل جزيرة الفيلة كما كان تبنّي الكتب الخمسة كشريعة في ولاية السامرة تشير إلى أنه كان للشعبين شعور بارز بأنهما جزءان من مجموعة واحدة عرقية دينية، وإلى أن طاعة شريعة واحدة تضاف بعد الآن إلى معيار الإنتماء إلى عشيرة أو إلى قبيلة إسرائيلية.

وفي القرن الرابع أيضاً ظهرت العملة لأول مرة من دراهم وأجزائها من الفضة وصكت في يهوذا والسامرة. ويظهر هذا الضرب المحلي للعملة بداية انتقال إلى الاقتصاد النقدي.

وبالرغم من عودة المبعدين على موجات متتالية فإن عدداً كبيراً من أبنائهم بقي في بابل حيث كانوا يقومون بدور اقتصادي لا يستهان به كما تشير إلى ذلك وثائق مؤسسة موراشو دو نيبور. ويدل اختيار نحميا وعزرا والمهمات التي أسندت إليهما أن بعض اليهود كانوا يشغلون وظائف عالية في البلاط الفارسي فيما هم ظلوا على علاقة بفلسطين. وليس ما يثير الدهشة، في ظل هذه الظروف أنه، في بابل وبتوجيه من الأوساط الكهنوتية، تحقق اندماج مختلف تقاليد الكتب الخمسة في وثيقة واحدة، هي الشريعة محقِّقة وحدة الشعب اليهودي وهويته في فلسطين وفي ديار الانتشار (دياسبورا).

وبعد بابل، مصر على الأرجح، هي التي حضنت العدد الأكبر من المنفيين وخاصة مصر السفلى (أشعيا 19، 16-25). وبالنسبة إلى مصر العليا، ففي حوزتنا

مستند فريد عن مجموعة من المرتزقة اليهود في جزيرة الفيلة. تتحدث الآجرات والورق البردي في القرن الخامس (514-398) عن مشاكلهم الحسية لحياتهم اليومية، كالغذاء والشراء والبيع والزواج والطلاق. . . ومنذ «زمن ملوك مصر» (القرن السادس ـ القرن الرابع) بنت هذه الجماعة هيكلاً على اسم ياهو كانت تقرّب له فيه القرابين. وفي سنة 410 نهب المصريون هذا الهيكل ودمروه على أثر حركة تمرد. وقد راسلت الجماعة اليهودية في مصر حاكمي يهوذا والسامرة (باقوحي Bagôhi) ودالايا، ابن سنبلاًط، طالبة مساعدتهما، فأجابا بالإيجاب سنة 407. غير أنهما اشترطا أنه لا يقرب بعد الآن، على المذبح سوى القرابين والبخور، فالأضاحي مقتصرة على هيكل أورشليم.

إن أهمية الجماعات اليهودية في بابل ومصر يجب ألاَّ تنسينا اليهود الآخرين المنتشرين تقريباً في كل مكان من الإمبراطورية الفارسية وفي ساردیس (Sardes) في آسيا الصغرى (عوبديا 20) وفي كيتيون (قبرص) كما نعلم ذلك من خلال الكتابات الفينيقية.

الشعب العبراني
والإمبراطوريات الهلينستية (142-332)

I ـ الإسكندر وحروب الخلافة (281-332)

يبدو أن ولايتّي السامرة واليهودية تحالفتا مع الإسكندر الكبير بسرعة. وإستناداً إلى المؤرخ فلاڤيوس يوسف (Antiquités Judaiques, XI, 321) فإن حاكم السامرة سنبلاط (الثالث؟) أعلن خضوعه للإسكندر منذ حصار صور: وهكذا حصل على إذن ببناء هيكل على جبل جرزِّيم (ربما كان البناء قد بدأ في أيام داريوس الثالث) إكراماً لصهره منسّى أخي يدُّوياع الكاهن اليهودي الأعظم في أورشليم. ولدى عودته تطوع ثمانية آلاف سامري في الجيش المقدوني المتجه نحو مصر. وظل موقف ولاية اليهودية أكثر غموضاً. ويذكر فلاڤيوس يوسف لقاة بين الكاهن الأعظم يشوياع والإسكندر لكنه لا يذكر حتى اسم حاكم أورشليم، الأمر الذي يثير الريب، مع بعض إشارات أسطورية أخرى حول تاريخية القصة.

وبعد احتلال غزة دخل الإسكندر إلى مصر حيث يقدم نفسه كسليل الآلهة على غرار الفراعنة القدماء. وبعد أن ترك المرتزقة السامريين في طيبه (Thébaide) (345، XI، A.J.)، عاد إلى سوريا ـ وفلسطين في ربيع سنة 331. وعهد أثناء غيابه بإدارة سوريا ـ فلسطين إلى قائده پارمينيون. ولما كان سنبلاط قد مات في بداية 331 (XI، 322)، فقد عيّن پارمينيون اندروماخس حاكماً يونانياً على السامرة أو ربما على سوريا المجوفة (البقاع) (كُوِنْتيه ـ كورسيه[1]: التواريخ IV،

(1) مؤرخ لاتيني من القرن الأول ق.م. كتب تاريخ الإسكندر (معرّب).

5). استقبل السامريون هذا التعيين استقبالاً سيئاً فخطفوا أندروماخس وأحرقوه حياً.

ولدى عودة الإسكندر من مصر زحف على السامرة فاقتصَّ من قتلة الحاكم «وعين ممنون مكان أندروماخس» (IV، 8) وقد ذكرت هذه الأحداث المأساوية أوراق البردي الآرامية التي وجدت في مغارة في وادي داليه (Dalyêh) حيث اختبأ عدد من زعماء السامرة مع أوراقهم ومحفوظاتهم، لدى اقتراب الإسكندر العائد من مصر. إن انتقامات المقدونيين من السامرة وبناء الهيكل على جبل جريزيم تفسر نهضة شكيم في بداية العصر الهلينستي.

وبعد غزوة مذهلة بلغت بالإسكندر شواطىء الهندوس مات في بابل في عمر 23 سنة (سنة 323). وعقب موته مرحلة من الحرب الأهلية بين قواده القدماء الذين يدّعون خلافته وهي ما تسمى حروب الخلافة (323-281).

ولما كان پرديكاس هو الوصي على العرش حاول أولاً أن يتصدى لمرزبان مصر المتمرد بطليمس بن لاغوس ولكنه هزم وقتل سنة 321. وربما أثناء هذه الحملة على مصر حصن پرديكاس السامرة وأقام فيها حامية مقدونية. وبعد وقت قصير احتل بطليمس أورشليم يوم سبت (تاريخ اليهودية، XII، 4) كما احتل صور وحمل معه عدداً كبيراً من الأسرى اليهود والسامريين إلى مصر يرافقهم منفيون طوعيون مثل حزقيا الذي يعطيه هيكاتيه (Hécateé)، كما يذكر فلاڤيوس يوسف لقب «الكاهن الأعظم». ولكن يجدر بنا أن نعتبره هو «حزقيا الحاكم» الممثل على قطع النقود. ومنذ ذلك الوقت سقطت فلسطين في منطقة نفوذ بطليمس الأول سوتير، ذاك النفوذ الذي ظل حتى سنة 286.

II ـ فلسطين تحت حكم اللاجيين (البطالسة) حوالى (285-200)

وظلت فلسطين حوالي القرن خاضعة لسلطة البطالسة، ولكن هذه السلطة نازعهم إياها سلوقيو إنطاكيا منذ «الحروب السورية» الأولى. غير أن بقاع سوريا (سوريا المجوفة) ظلت أثناء سلام سنة 241، تابعة لمصر. حمل هذا السلام الإزدهار لمصر البطالسة واعتبر عهد بطليمس الثالث ذروة الحضارة الإسكندرانية.

وبالرغم من الإستيلاء على أورشليم وجلاء عدد من اليهود السامريين في عهد بطليمس الأول ظلت سيطرة البطالسة عامة عهد ازدهار. لم يكن رجل واحد لإدارة شؤون كل منطقة بل كثيرون: قاض عام (الستراتيفس) مكلف الشؤون العسكرية والسياسية وموظف الإدارة الملكية وموظف يهتم بالضرائب والمنافع الشخصية بل الخاصة بالملك. وكان يشرف على هؤلاء الرجال الثلاثة الحكومة المركزية في الإسكندرية. وتحولت الولاية إلى هيپاركية Hyparchie (حكومة ثانوية) (العمانية والسامرية والجلعادية وقسمت كل واحدة إلى دوائر إدارية. وعلى غرار الإسكندر بنى البطالسة والسلوقيون أو أعادوا بناء المدن على مثال المدينة (پوليس) اليونانية: مثل پطوليمايِيس (عكا) وسيتوبوليس (بيت شان) وماريزا (ماريشا) وفيلادلفيا (ربة عمون=عمُّون).

ويبدو أن هذه الهيلينية كانت عن طريق مزج الشعوب أقل بروزاً في أورشليم حيث أصبح الكاهن الأعظم بعد الآن السلطة الوحيدة التي تمثل التقليد اليهودي. واستناداً إلى عدة معلومات من فلاڤيوس يمكننا محاولة تنظيم تتابع هؤلاء الكهنة.

- أونيا الأول خليفة يدوياع بعد موت الإسكندر (تاريخ اليهود القديم (AJ، XI، 347) وحاصر آريوس الأول في سپارطة (309-265) (مكابيين أول 12، 19-23).

- سمعان الأول بن أونيا الأول في عصر بطليمس الأول (تاريخ اليهود XII، 44).

- منسَّى عم أليعازر (تاريخ اليهود XII، 157).

- أونيا الثاني بن سمعان الأول في عصر أنطيوخس الثالث وبطليمس الثالث وبطليمس الرابع.

- سمعان الثاني («العادل»؟) ابن أونيا الثاني في عصر بطليمس الخامس وأنطيوخس الثالث (تاريخ اليهود XII، 224؛ (يشوع بن سيراخ 50، 1 . . .).

- أونيا الثالث بن سمعان الثاني في عصر سلوقس الرابع (ملوك ثانٍ 3، 1-3).

إن قصة يوسف الطوبي التي يشوبها الكثير من عناصر الأسطورة (تاريخ

اليهود XII، 160 . . .) والتي أكدتها جزئياً برديات زينون تكشف عن أن الكاهن الأعظم كان يؤدي سنوياً للبطالسة جزية من 20 (؟) وزنة، بينما الجابي، في سوريا المجوفة، الذي كان يضطلع بهذه المهمة بعد أن يحصل عليها بالمزاد العلني في الإسكندرية، كان يدفع للبطالسة كل سنة مبلغاً يفوق ذلك. ربما كان من الضروري ربط المدونات العبرانية القديمة اليهودية (yhdt) بجباية الضرائب الملكية بينما المدونات الأورشليمية (yrslm) تتعلق بالعشر الكهنوتي. ويستنتج من مكتشفات حديثة العهد وجود مصنع يهودي لصك العملة منذ بداية عصر البطالسة. وإستناداً إلى هذه العملات وهذه المدونات، لم تعد اللغة الآرامية بعد سقوط الإمبراطورية الفارسية، اللغة الرسمية في الإدارة: يمكن أن تكتب الوثائق الإدارية باليونانية أيضاً فيما يخص الاتصالات بالحكومة المركزية وبالعبرية في الاستعمال المحلي.

وتظل مراجعنا عملياً صامتة حول وضع السامرة في عصر البطالسة. ويبدو، طبقاً لاتفاق الإسكندرية، أن منسّى صهر سَنْبُلاط وأخا يدُّوياع، قد بنى هيكلاً على جبل جَيروزيم. وعندما أصبح منسّى الكاهن الأعظم في جيروزيم ألحق كَهنوت هذا الهيكل بالسلالة الصدوقية.

وانتشر الشتات اليهودي في القرنين الرابع والثالث في الإمبراطورية الهلينستية قاطبة وخاصة عند تأسيس مدن جديدة: «وهكذا انتشرت في أنطاكية وأفسس (Contre Apion, II, 39). ففي هاتين المدينتين وأقله إبتداءً من عهد أنطيوخس الثالث، نعم اليهود بحق المواطنية كالأغارقة سواء بسواء. وتؤكد جنائزية اكتشفت حديثاً في كيتيون (Kition) وجود يهود مندمجين بالفينيقيين في قبرص منذ القرنين الرابع والثالث. غير أن الجماعة اليهودية الأكثر أهمية في عصر البطالسة، هي التي وجدت في مصر وعلى الأخص في الإسكندرية وفي الأماكن الحصينة في الدلتا وڤيرينيا (Contre Apion, II, 44) وذلك على أثر حملة بطليمس الأول على فلسطين (حوالى 319). ويبدو أن خلفه بطليمس الثاني فيلادلفوس كان ينظر بعطف إلى اليهود الذين كان يريد أن يضمن إخلاصهم له. لقد أعاد الحرية، بمرسوم خاص، إلى الأسرى اليهود المستخدمين في الجيش أو في أماكن خاصة، وأكثر من ذلك، لقد أصرّ، ضمن إطار سياسته الثقافية

والعلمية من أجل إغناء المتحف ومكتبة الإسكندرية، على أن يكون في تصرف هذه الأجهزة الرسمية ترجمة يونانية لشريعة اليهود ولمختلف كتبهم المقدسة، تلك الترجمة المسماة تقليدياً بالسبعينية (Contre Apion, II, 45-47؛ رسالة أريستِه إلى فيلوقراطس، تاريخ اليهود XII, 118-11). لعبت هذه الترجمة دوراً ذا شأن في اليهودية الهلينستية. فبما أن اللغة اليونانية كانت تنتشر بين يهود الشتات وأن اللغتين العبرانية والآرامية أخذتا بالتراجع. كانت السبعينية تستعمل في القراءة العامة للكتب المقدسة في اجتماعات اليهود السبتيين.

وعند موت بطليمس الثالث تواجه في «الحربين الرابعة والخامسة» خليفتاه بطليمس الرابع فيلوماتور (222-205) وبطليمس الخامس إپيفانس (204-180) وانتيوخس الثالث الكبير (223-187).

أخيراً، وعلى أثر معركة پانيون (قيصرية فيليپوس) (200) عند منابع الأردن احتل أنطيوخس الثالث وبشكل نهائي وحاسم سوريا المجوفة بكاملها ومن ضمنها السامرة وأورشليم حيث ساعده اليهود على احتلال القلعة التي كانت لا تزال في أيدي جيش البطالسة (تاريخ اليهود XII، 133).

خرجت فلسطين منهكة من هذه السلسلة من الحروب التي كانت تنتقل خلالها من معسكر إلى آخر وكانت تدمر كلما تناوبتها الجيوش. وعندما احتلها أنطيوخس الثالث عمّم فيها عصر السلوقيين الذي بدأ سنة 311 بالنسبة إلى جميع الأعمال الرسمية.

III ـ فلسطين تحت حكم السلوقيين (200-167)

بعد التدمير يجب إعادة البناء. أبدى أنطيوخس الثالث من الأريحية والكرم للمساعدة في إعادة البناء بمقدار ما أسرعت المدينة بالإنضمام إليه. فعلى أثر جمع شمل اليهود في أورشليم أصدر مرسوماً بإسهام ملكي عظيم في تقدمات الهيكل وسهل استيراد الخشب من لبنان ومواد أخرى ضرورية، لترميم الهيكل، معفاة من الضرائب. وأكد صلاحية الشريعة لليهود وأعفى مجلس الشيوخ والكهنة وموظفي الهيكل من الجزية ومن ضريبة التاج وضريبة الملح. ولكي يسهل العودة إلى السكن في المدينة، أصدر مرسوماً يعفي السكان الحاليين أو الذين سيأتون

إليها في مهلة قصيرة من الضرائب لمدة ثلاث سنوات ثم من ثلث الضرائب وأخيراً أمر بتحرير السكان الذين استرقوا مع إعادة أملاكهم إليهم (تاريخ اليهود XII، 138-144).

وعلى أثر هذا المرسوم الذي يؤكد دور سياسة مجلس الشيوخ نهضت أورشليم بسرعة من بين ركامها. ورمم الهيكل بشكل رائع بإدارة سمعان الثاني وأصبح مركز عبادة مهيبة أثار حماسة يشوع بن سيراخ (يشوع بن سيراخ 50، 1-5).

يشكل كتاب تعليم السيراخية شهادة قيمة للحياة اليومية في أورشليم حوالى (200-175) ولأسلوب التربية التقليدية التي تعطى لأولاد الوجهاء في مدارس (بيت مدراش) هذه المدينة. وتثبت السيراخية، كما يثبت مرسوم أنطوخس الثالث، الدور السياسي الذي يقوم به الوجهاء أعضاء مجلس الشيوخ (جيروزيا) الذي يحكم المدينة والبلاد في حين يأتي على ذكر مهن مختلفة: مزارعون، مربو مواشٍ، نجارون، حدادون، خزافون وحافرو نقوش الخواتم (ابن سيراخ 38، 24...) هذا الكتاب الذي تبجله الأوساط الصدوقية (ابن سيراخ 51، 12) يشفّ عن مجتمع يحتقر فيه بعض القادة المثقفين الحرف اليدوية ويستغلون مراكزهم لجمع الثروات (ابن سيراخ 21، 28).

يبدو أن سياسة أنطيوخس الثالث المؤيدة لليهود قد امتدت إلى عالم الشتات كما تشير إلى ذلك رسالة أنطيوخس إلى زوكسيس (Zeuxis) حاكم بابل المكلف بنقل مئتي عائلة يهودية إلى ليديا وفريجيا ليضمن الإخلاص السياسي لهذه المنطقة بعد تمرد آخائيوس (حوالى 213). وكان من حقوق اليهود الذين استدعوا للإقامة في الحصون وللخدمة في الإدارة أن يعيشوا بحسب شريعتهم وكانوا يعفون من الضرائب لمدة عشر سنوات. يفسر هذا المرسوم الأهمية التي اكتسبها بعد ذلك يهود الشتات في آسيا الصغرى. (تاريخ اليهود XII، 147).

وبعد أن احتل أنطيوخس سوريا المجوفة تحالف مع البطالسة وقد زوج إبنته كليوباطرة من الملك الشاب بطليمس الخامس أپيفانوس (204-180) (دانيال 11، 17). وعندئذ يحاول التصدي للتوسع الروماني في اليونان وفي مقدونيا. ولكنه هزم في مغنيزيا سيپيل في منطقة أزمير. وكانت شروط السلام التي أملاها

شيپيون الأفريقي في سرديس (Sardes) ووقعت في آفاميا في فريجيا (188) قاسية جداً: اضطر أنطيوخس إلى إخلاء جميع آسيا الصغرى غربي طورس ودفع تعويضات حرب باهظة موزعة على إثنتي عشرة سنة. هذا الدين الثقيل دفع بأنطيوخس الثالث إلى شن حملة على سوزيانا (Susiane)[1] لنهب الهياكل فلقي موتاً مشيناً في هيكل آنايتيس في منطقة إكباتان[2] (تموز/يوليو 187). وطغت على عهد سلوقس الرابع فيلوپاتور (187-125) المشاكل المالية بسبب الديون المتوجبة للرومان. وفي هذا السياق الاقتصادي تندرج قصة هليودورس الواردة تفاصيلها في سفر المكابيين الثاني 3. ونزولاً عند تحريض رجل يدعى سمعان كان مقلداً الوكالة على الهيكل رفض الكاهن الأعظم أونيا الثالث تسلُّم شرطة أسواق المدينة، أرسل سلوقس الرابع وزيره الأول هيلودورس ليفتش هيكل أورشليم ويضبط كنوزه. فرفض أونيا الثالث هذا الإستيلاء رفضاً جازماً ولا سيما وأن الخزانة تشتمل، عدا ودائع الشعب الفقير، أموال الهيكل وثروة قريبه هيركانس الموالي للبطالسة المفصول إلى حصن عرق (أرق) الأمير في شرقي الأردن حيث كان يحكم البلاد لمدة سبع سنوات (حوالى 181-174) (تاريخ اليهود XII، 230). وأصر هليودورس على تجاوز هذا الرفض لكنه منع من ذلك بطريقة سرية أو ربما بمكيدة من الكاهن الأعظم كما ادعى سمعان. والظاهر أن هليودورس اتفق أخيراً مع أونيا الثالث للإحاطة بسلوقس الرابع فاغتاله سنة 175.

وإذ أخِذَ ديمتريوس ابن سلوقس الرابع رهينة في روما تسلم أنطيوخس الرابع أبيفانوس أخو سلوقس، السلطة في إنطاكيا (173-163/164). ولما كان أونيا الثالث موجوداً في إنطاكيا، استبدل بأخيه ياسون الذي تعهد بدفع مبالغ ضخمة من المال شرط أن يدعمه الملك، في سياسته الآيلة إلى هلينة اليهودية. وهكذا أصبحت أورشليم، لسنوات عدة، مدينة هلينستية وقد دعيت «إنطاكية» تكريماً لأنطيوخس الرابع. ألغي المرسوم الذي استنَّه أنطيوخس الثالث والذي يمنح اليهود احترام شريعتهم والإعفاء من الضرائب (كما مرَّ معنا). أمر ياسون ببناء معهد للرياضة عند أسفل أكروپول أورشليم وأرسل بعثات يهودية إلى

(1) خوزستان حالياً. م..

(2) عاصمة ميديا وهي اليوم همذان. م..

الألعاب التي تجري كل أربع سنوات في صور (مكابيين ثانٍ 4، 7-20) وعلى أثر زواج بطليمس الرابع فيلوميتور من كليوباطرة الثانية (حوالى 174) ورواج شائعات حول الاستعداد لهجوم على سوريا المجوفة راقب أنطيوخس الرابع حصون حدوده الجنوبية وخاصة يافا وأورشليم حيث استقبله ياسون استقبالاً رائعاً (مكابيين ثانٍ 4، 21. . .) وقد دامت حبرية ياسون ثلاث سنوات (حوالى 174-171).

استغل منلاوس أخو سمعان والقيِّم على الهيكل بعثته إلى إنطاكية وحوّل الكهنوت الأعظم إلى نفسه «بتقديم 300 وزنة (قنطار) أكثر «من ياسون (مكابيين ثانٍ 4، 24) والتجأ إلى أرض بني عمون. وبعد قليل حدث خلاف بين فيلاوس وسوستراتس قائد الحصن: فذهب كلاهما لرفع دعواه أمام محكمة إنطاكية. ولكي يحصل فيلاوس على الأموال الضرورية للدفاع عن قضيته باع بعض الأواني المقدسة الخاصة بالهيكل فأثار بعمله هذا شكوكاً فقدم فيلاوس الثالث شكوى بذلك في إنطاكية. استغل فيلاوس أنطيوخس الرابع فرشا اندرونيكس القائم بأعمال المملكة للتخلص من أونيا فأخرج أندرونيكس أونيا الثالث من هيكل أپولون في دَفْنِهْ بالقرب من إنطاكية الذي كان يتخذه ملجأ ولما خرج قتله. ولم تذهب هذه الجريمة دون عقاب فلما عاد أنطيوخس الرابع أعدم اندرونيكس (سنة 170) (مكابيين ثانٍ 4، 27، 38) وعندما عاد منيلاوس رفع مجلس الشيوخ شكوى ضده؛ ورفعت الدعوى أمام أنطيوخس الرابع إذ كان في صور. ربح منيلاوس الدعوى بدعم من حاكم سوريا المجوفة فحكم بالموت على الرسل الثلاثة الذين أوفدهم مجلس الشيوخ.

وأثناء حملة أنطيوخس الرابع على مصر (169/170) وعلى أثر انتشار إشاعة كاذبة بموته، احتل ياسون أورشليم وراح يفتك بمعارضيه ذبحاً. فيما التجأ منيلاوس إلى قلعة المدينة. وعندما علم أنطيوخس الرابع بحركة العصيان هذه غادر مصر وزحف على أورشليم، وعند اقترابه يهرب ياسون ويموت بعد قليل منفياً في سبارطه، فيذبح أنطيوخس قسماً من شعب أورشليم (خريف 169) ويدخل المحراب متخذاً منيلاوس دليله ويستولي على كنوز الهيكل والأواني المقدسة ثم يذهب بعد أن يعينّ فيليپ والياً على أورشليم وأندرونيكس حاكماً على السامرة (مكابيين ثانٍ 5).

جهز أنطيوخس حملة ثانية على مصر في ربيع 168 وبعد أن أحرز بعض الإنتصارات اضطر إلى الإنسحاب أمام تهديدات إعلان الحرب من قبل پوپيليوس لانياس القائد الروماني (دانيال 11، 29. . .) وعندما عاد أنطيوخس أصدر مرسوماً بهلينة منهجية لليهودية والسامرة وأرسل القائد أپولونيوس مع 22000 رجل (سنة 167) فيستغل هذا العرض العسكري يوم السبت ويذبح المتفرجين، وتنهب أورشليم. والذين لم يستطيعوا النجاة بأنفسهم اقتيدوا أسرى. يدمر سور المدينة فيما كان يجري بناء قلعة (أكرا) للحامية السلوقية. وبعد هذه التصفية لأورشليم الإسرائيلية يفرض الموفد الأثيني جيرونت المبعوث الملكي هلينة العبادة والعادات في أورشليم كما في السامرة. ويوقف هيكل أورشليم على زفس الأولمپي وهيكل جريزيم لزفس المضياف. وفي كانون الأول/ ديسمبر من عام 167 يدشّن مذبحاً وثنياً في الهيكل («منتهى الشرّ») بتقديم قرابين وثنية وخاصة الخنازير ويحتفل بأعياد باخوس. وشرّع موت كل من يحافظ على العادات الإسرائيلية مثل: يوم السبت، والختان وتحريم بعض المآكل (مكابيين أول 1، 41 ـ 53؛ مكابيين ثان 6، 1-9). ومزقت كتب الشريعة وأحرقت (مكابيين أول 1، 56). هذه الهلينية المنهجية قُبل جزء منها وجزء حوَّره السامريون بمهارة وقد طلبوا ألاّ يتقيدوا بها بحجة أنهم «صيدونيون في شكيم» الأمر الذي منحهم إياه أنطيوخس سنة 166 (تاريخ اليهود XII، 257. . .) ويبدو أن المراسيم التي سنت ضد الإسرائيليين طبقت دون معارضة تذكر في الجليل وفي جلعاد حيث أهمية المدن الهلينستية أدت إلى بعض الهلينة عن طريق التكامل والتضامن. واستقبلت هذه المراسيم بكثير من الحذر والحيطة في يهوذا وأورشليم: لا شك أن الكثير من الأعيان وكبار الموظفين الذين تثقفوا بالثقافة اليونانية خضعوا للقوانين (دانيال 9، 27؛ 11، 23؛ مكابيين أول 1، 43 ـ 52)؛ وفضل آخرون النفي الطوعي إلى مصر خاصة مثل الكاهن أونيا الرابع وكثير من عامة الشعب ارتضوا ذلك بالقوة، محافظة على حياتهم. وآخرون لجأوا إلى البرية أو اختبأوا في مغاور ليمارسوا الشريعة سراً (مكابيين أول 1، 53-56)، ولكن الشرطة الملكية ومفتشوها كانوا ساهرين وكان هناك الكثير من الوشاة. أوقف بعض اليهود ونفذ فيهم حكم الإعدام (مكابيين ثان، 7-8؛ 42)؛ وآخرون تمردوا ولاذوا بالفرار.

IV ـ الثورة المكابية (142-167)

رفض متّتيا الحشموني كاهن من بني يوياريب مع أولاده الخمسة التضحية أمام مبعوثي الملك في مودين. لقد أعطى إشارة العصيان بذبحه يهودياً كان يهم بتقديم ذبيحة وثنية وبقتله مبعوث الملك، ثم لاذ بالفرار (مكابيين أول 2). يهود آخرون ذُبِحوا لأنهم رفضوا أن يدافعوا عن أنفسهم ذات يوم من أيام السبت (مكابيين أول 2، 29، 35، مكابيين 6 2، 11). وكان متتيا بطل الصراع المسلح حتى يوم السبت ـ وجمع حوله كل الذين أرادوا أن يظلوا «مؤمنين أوفياء» (أو الحسيديين) (مكابيين أول 2، 42) لإيمان آبائهم وشريعتهم، أي حوالى 6000 رجل زكّى سفر دانيال غيرتهم الدينية. كان هؤلاء «الأنصار» يدمرون الهياكل الوثنية ويختنون الأولاد بالقوة ويحرقون القرى التي انتقلت إلى الهلينستية.

وعند موت متّتيا (سنة 166/ 165) أصبح إبنه البكر سمعان الزعيم السياسي لحركة التمرد بينما أصبح إبنه يهوذا الملقب بمكابي القائد العسكري. كانت العمليات تنفذ ليلاً وقد لقيت بعض النجاح. قَتَل يهوذا، في كمين، أبولونيوس ترافقه وحدة عسكرية وثنية وسامرية وصد جيشاً جاء للمساعدة في طلعة بيت حورون.

وعندما تلقى أونطيوخس الرابع هذه الأنباء قرر إبادة اليهود المتمردين. وبما أنه كان ذاهباً إلى بلاد فارس لجمع الجزية هناك ترك ليسياس نائباً عنه مع تفويض بتنظيم هذه الإبادة. أرسِل نيكاتور صديق الملك يعاونه جورجياس، على رأس جيش من 20000 رجل. وجمع يهوذا رجاله في المصفاة، وقد استغل غياب جورجياس ونخبة الجنود في جيشه وشن هجوماً سحق معسكر الجيش السلوقي في عمّاوس (سنة 165) (مكابيين أول 3، 4 ـ 38، 27؛ مكابيين ثان 8، 1ـ29).

وأعقب هذا الانهزام للجيش السوري نشاط ديبلوماسي كثيف، فطلب المتمردون من ليسياس أن يعترف لهم بحق العيش بحسب شريعتهم وطلبوا مساعدة الواليين الرومانيين كوينتوس ميميوس وتيتوس مانيليوس. ويفسر التدخل الروماني اللهجة التوفيقية نسبياً في رسائل ليسياس وأنطيوخس والواليين الرومانيين. وقد ذكرت هذه الرسائل في سفر المكابيين الثاني الفصل 11 الآيات

13 ـ 38. استغل يهوذا المكابي هذه الهدنة واحتل أورشليم. عامل حامية القلعة باحترام وطهر الهيكل ودشنه في 25 شهر كيسليف (حوالي 14 كانون الأول/ ديسمبر 164). وصارت الذكرى السنوية «العيد التكريس» يحتفل بها بعد ذلك اليوم كل عام (مكابيين أول 4، 36 ـ 61).

وأثبت أنطيوخس الخامس أوپاطور (162-163/165) عند موت أبيه، حق اليهود في الحياة بحسب شريعتهم (مكابيين ثان 11، 22ـ26) ودعم يهوذا الهيكل وقلعة بيت صور على الحدود مع آدوم (مكابيين أول 4، 60. . .). ثم تلبية لنداء الإسرائيليين المضطهدين كان يقوم بغارات مظفرة في آدوم وفي أكراباتين عند البيّانيين (Baïanites) والعمونيين. وبعد قليل قاد سمعان حملة إلى الجليل حتى عكا أما يهوذا فتوجه إلى أرض جلعاد حتى بصرى. وحمل إسرائيليو هاتين المنطقتين إلى أورشليم ضماناً لسلامتهم. وفي هذه الأثناء هَزَم الجيش السوري بقيادة جورجياس حملة عسكرية يهودية عند أبواب يمنيا. وبعد ذلك انطلق يهوذا في حملة ضد آدوم فاحتل حبرون ومنطقتها ثم ماريسا وهاجم مدن السهل الفلسطيني بغارة على أشدود. وكان حصار قلعة أورشليم (مكابيين أول 6، 18. . .) دليلاً كافياً على أن الهدف من نشاط يهوذا العسكري ليس فقط الدفاع عن اليهود ليعيشوا بحسب شريعتهم ولكن تثبيت سلطته السياسية الشخصية.

وكان على ليسياس، الوصي على العرش أثناء طفولة الملك أنطيوخس الخامس، أن يتصدى بقوة لحركة التمرد هذه. فهاجم برفقة الملك الفتى، اليهودية الجنوبية وحاصر بيت صور وواجه جيش يهوذا اليهودي. وبالرغم من بطولة إلعازر أخي يهوذا دارت الدائرة على الجيش اليهودي واضطرت بيت صور أن تستسلم بعد قليل. وحاصر ليسياس هيكل أورشليم المحصَّن. ولم ينقذ اليهود سوى منافسات السوريين فيما بينهم. والواقع أن فيليپ الوصي السابق على العرش وعلى أنطيوخس الخامس حاول الإستيلاء على السلطة في إنطاكية. فبادر ليسيّاس وأنطيوخس الخامس إلى عقد صلح مع المتمردين يتيح لهم أن يعيشوا بحسب الشريعة. وبعد أن دمر ليسيّاس وأنطيوخس أورشليم اليهودية احتلوا إنطاكية حيث كان فيليپ قد نجح في ترسيخ مقره. وعلاوة على ذلك لقد أمر أنطيوخس الخامس بإعدام الكاهن الأعظم منيلاوس في بيريه وكان هذا نصير الهلينية (مكابيين أول 6).

وفي هذه الأثناء استطاع ديمتريوس بن سلوقس الرابع أن يهرب من روما حيث كان رهينة. وقتل ليسياس وأنطيوخس وأعلن نفسه ملكاً باسم ديمتريوس الأول سوتر (161ـ150). أما ألكيمس الذي عينه، على الأرجح، أنطيوخس الخامس كاهناً أعظم بعد مقتل منلاوس فاستنجد بالملك ضد يهوذا. فأرسل الملك ديمتريوس الأول صديقه وحاكم عبر النهر لمساعدة ألكيمس. وبعد محاولة اتفاق (مكابيين أول 7، 10. . .) أوقف بكّيديس المفاوضات بقتله المبعوثين. وبعد قليل غادر اليهودية تاركاً قسماً من الجيش لمساعدة ألكيمُس، ولم يستطع هذا أن يصمد أمام يهوذا وجنوده فعاد إلى إنطاكية يطلب مساعدة ديمتريوس الأول. فأرسل الملك قائده نكانور مع جيش لجب. وبالرغم من نصب كمين بالقرب من كفر سلامة دخل نكانور أورشليم وهدد بإحراق الهيكل إذا لم يسلم يهوذا نفسه. وإذ خرج نكانور من أورشليم ينتظر الإمدادات بالقرب من بيت حورون، هاجم يهوذا الجيش السلوقي وقتل قائده. واحتفل اليهود بالذكرى السنوية لهذا الانتصار المدعو «يوم نكانور» (13 آذار/ مارس 161).

وعلى أثر هذا الإنتصار ذهبت بعثة يهودة إلى روما لعقد معاهدة فكتب الرومان إلى ديمتريوس لكي يوقف الحرب على صديق للرومان (مكابيين أول 8). فوصلت الرسالة متأخرة. وعند وصول خبر هزيمة نكانور أرسل ديمتريوس للحال ألكيمس مع جيش بقيادة بكيديس. فبعد أن أعاد هذا احتلال أورشليم أخذ يبحث عن يهوذا في منطقة بيرزيت مع 20000 راجل و2000 فارس. وعند اقتراب هذا الجيش هرب الكثير من اليهود اللاجئين إلى الأدغال وبقي يهوذا مع 800 رجل. ولما لم يشأ أن يهرب قتل في معركة ميئوس منها (نيسان ـ أيار/إبريل ـ مايو 160) (مكابيين أول 9).

وعند ذاك استطاع بكيديس السيطرة على البلاد لا سيما وأنها كانت قد ضربتها المجاعة. وفيما هو يتعقب آخر فلول يهوذا عين وجهاء من مناصري الهلينستية لإدارة شؤون البلاد. وحصن أكثر المدن وخاصة مدن الحاميات: بيت صور وجازر والقلعة. وبعد أن اعتقد أن البلاد قد عمَّها السلام عاد إلى إنطاكية. لمَّ المتمردون شتاتهم وتجمعوا حول يوناثان شقيق يهوذا المكابي (160-142) ولجأوا إلى برية اليهودية شرقي تقوع.

مات ألكيمس في حدود شهر أيار/مايو 159 بعد أن بدأ بتهديم سور الهيكل الذي يحدِّد المكان المقدس المحظور على الغرباء. وأمام تجدد نشاط المقاومة المكابية استنجد انصار الهلينستية من جديد ببكيديس. فعاد هذا سنة 157 ولكنه فشل أمام قلعة بيت باسي حيث لجأ المتمردون. فتراخت عزيمته فرضي بهدنة عرضها عليه يوناتان وعاد إلى إنطاكية. استغل يوناتان الهدنة وأقام في مخماس Makhmas على بعد 12 كلم إلى شمالي شرقي أورشليم حيث استعاد شيئاً فشيئاً السيطرة على اليهودية بأسرها.

وفي سنة 152/153 وبمناسبة الحرب الأهلية بين ديمتريوس الأول وخصمه ألكسندر بالاس. حاول كلا الرجلين الإستعانة بيوناتان. فانحاز هذا إلى جانب ألكسندر بالاس الذي عينه كاهناً أعظم على أورشليم (تشرين الأول/أكتوبر 152) ومات ديمتريوس بعد ذلك بقليل (150). وفي تشرين الأول/أكتوبر 150 جاء بالاس إلى عكا ليتزوج كليوباترا بنت ملك مصر بطليموس السادس فيلوميتور (145-180). وبهذه المناسبة ثبَّت يوناتان في منصبه ككاهن أعظم وعينه حاكماً مدنياً وعسكرياً على اليهودية.

وفي سنة 147 سعى ديمتريوس بن ديمتريوس الأول والذي أصبح فيما بعد ديمتريوس الثاني نيكاتور إلى استعادة عرش أبيه بمساعدة أپولونيوس حاكم سوريا المجوفة. فقرر هذا الأخير أولاً إطاحة يوناتان حليف بالاس. هزم جيش أپولونيوس بين يافا وغزة، فنهب يوناتون غزة وهيكل داجون فيها ثم تقبل خضوع عسقلان. ومكافأة له على هذا الانتصار وهبه بالاس عقرون وأرضها (مكابين أول 10). غير أن بالاس كان من العجز بحيث تخلى عن حميه بطليمس (بطلماوس) السادس. فاستعاد هذا إبنته كليوبطرة منه وزفها إلى منافسه ديمتريوس الثاني نكاتور (الظافر). هزم بالاس وقتل في حين أن حماه مات متأثراً بالمعركة (145).

واستغل يوناتان هذه الاضطرابات واحتل قلعة أورشليم. وإذ وشي به إلى ديمتريوس الثاني فلم يتردد في ملاقاته في بطلمايس (عكا) وثبت نفسه ككاهن أعظم، في حين أن اليهودية كانت معفاة من الضرائب وألحقت بها أفراما واللد والرامتائيم التي فصلت عن السامرة (الأمر الذي ضاعف عملياً مساحة اليهودية!).

وبعد قليل طلب ديمتريوس الثاني مساعدة يوناتان لإعادة النظام إلى إنطاكية بالذات التي كان يهددها أنصار أنطيوخس بن ألكسندر بالاس والقائد تريفون. ولقاء الكثير من الضحايا استطاع الثلاثة آلاف رجل الذين بعث بهم يوناتان كبح التمرد، ولكن لم يلبث القائد تريفون أن توج الفتى أنطيوخس السادس ودخل إلى إنطاكية ولم يكن منه إلاّ أن ثبت يوناتان في منصبه ككاهن أعظم وفي ملكيته للوحدات الإدارية التي وعد بها ديمتريوس الثاني وعين أخاه سمعان قائداً على الشاطىء الفينيقي الفلسطيني وبادر يوناتان على رأس الفرق السلوقية في سوريا المجوفة إلى الإستيلاء على عسقلان وغزة ثم تحدى الجيش السوري الذي يدعم ديمتريوس في الجليل وفي سهل حاصور (مكابيين 1، 11). وجه جيشه إلى بلاد حماة وأصبح سيداً على كل سوريا المجوفة هازماً العرب المدعوين الزبيديين وسيطر على دمشق فيما كان أخوه سمعان يقيم حامية يهودية في يافا، وحصن أورشليم وعدة مدن في اليهودية. وفيما يوناتان يقوم بهذا النشاط العسكري أرسل سفارات إلى روما وإسبرطة لتقوية تحالفاته الخارجية (مكابيين أول 12).

وخاف تريفون أن تفلت سوريا المجوفة من قبضته. وإذ التقى يوناتان في بيت شان أقنعه بمتابعة المفاوضات في بطلمايس (عكا) التي وعهده بتسليمها له. وفي عكا تصدى تريفون ليوناتان وقتل حاميته. وعلى أثر ذلك، أعلن سمعان نفسه حاكماً، على أورشليم التي تابع تحصينها. وبعد أن طرد سكان يافا ليجعل منها مدينة يهودية انتظر تريفون في السهل عند حاديد. ولذا ادعى تريفون أن القبض على يوناتان سببه أنه لم يدفع المال المتوجب عليه لخزينة الملك. أخذ 100 وزنة (قنطار) من الفضة وولدين للكاهن الأعظم الرهينة مقابل وعد بالتحرير لم ينفذه بل على العكس من ذلك طوق اليهودية وحاول الوصول إلى أورشليم من جهة الجنوب ولكن وجود جيش سمعان وسوء الأحوال الجوية جعلاه يتخلى عن مخططه. وقبل أن يعود إلى إنطاكية قتل يوناتان في بسكاما (Baskama)[*] (ربما بيت شقمه، تل السماق ـ شقمونا. . .).

وبعد أن دفن سمعان أخاه يوناتان في مُدين وأقام له نصباً عظيماً، وافق

(*) الطرف الغربي لجبل الكرمل.

هذا الأخير الذي كان بحاجة إلى دعم، على مطالب سمعان. وبدأ الشعب يؤرخ الأحداث والعقود بـ: «العام الأول لسمعان الكاهن الأعظم وقائد اليهود ورئيسهم (أيار/مايو 142) (مكابيين أول 13، 42). وبعد 25 عاماً من المعارك المتواصلة نال الشعب اليهودي استقلاله السياسي.

وكانت البلاد قد دمرتها مختلف الجيوش السورية والغزوات المكابية. وأكثر من ذلك إن مستلزمات الحرب والوحدة القومية حول المكابيين والقادة العسكريين وضعت في الدرجة الثانية واجب احترام الشريعة والتقليد الإسرائيلي الذي هو في أساس الثورة. ولم يتردد «الحسِّيديون» أو «المؤمنون» اليهود بالرغم من أنهم حلفاء المكابيين، عندما تسنح الفرص (مكابيين أول 7، 12 . . .) في التنصل من السياسة الشخصية للمكابيين. وإن لقب «كاهن أعظم» ثم «ملك» الذي سيتخذه الحسمونيين الذين لم يتحدروا لا من صدوق ولا من داود، لن يلبث أن يثير ردود فعل مختلفة داخل جماعة الحسّديين. وكان السامريون من جهتهم، وبمحاولة منهم للهرب من ظلم قوانين أنطيوخس الرابع المناهضة للإسرائيليين، انفصلوا عن اليهود في وقت عصيب. فاعتبرهم هؤلاء منذئذٍ كمتواطئين، موالين للهلينستية متهمين بالإنحياز إلى الحضارة الوثنية.

الفصل التاسع

نهضة المملكة العبرانية ونهايتها (142 ق.م. ـ 70 ب.م.)

I ـ سلالة الحسمونيين المتحالفة مع روما (142-63)

لم يتخذ سمعان لقب «ملك» بل لقب «كاهن أعظم» و«قائد عسكري» و«زعيم سياسي». بعد أن اعترف به ديمتريوس أرسل مبعوثين إلى روما وسبارطة للإعتراف بلقبه المثلث ولتجديد التحالفات التقليدية. وبموجب قرار مشيخي اعترف الرومان رسمياً باليهود حلفاء لهم وأصدقاء والتزموا وعداً بدعم سلطة سمعان دبلوماسياً في عالم الشتات بأسره وخاصة في مصر (مكابيين أول 14، 16ـ24؛ 15، 15ـ24).

استغل سمعان هذا الدعم الخارجي فدعا السلطات الدينية والسياسية في البلاد إلى جمعية عمومية استثنائية (سنة 140)، اعترفت به كاهناً أعظم وقائداً عكسرياً ورئيساً «مدى الحياة إلى أن يظهر نبي أمين» (مكابيين أول، 14، 41ـ47) تتطلب هذه الجملة الغامضة تأسيس سلالة مالكة ولكن سلالة «احتياطية».

وبعد أن أزال سمعان كل أثر للسلطة السلوقية بسيطرته على حاميات جازر والقلعة (سنة 141) كانت حاكميته (142-134) هادئة بشكل عام (مكابيين أول 14، 4...).

وانتهت نهاية مأساوية. قتله غيلة صهره بطلماوس بن أبوبَس الحاكم العسكري لسهل أريحا في قلعة دوك وسجن ولديه متّتيا ويهوذا. وفشلت هذه المحاولة الإنقلابية الموالية للسلوقيين. ونجح الابن الثالث لسمعان، يوحنا، الذي كان آنذاك في جازر في الهرب من محاولي اغتياله وأعلن نفسه كاهناً أعظم

وحاكماً على أورشليم سنة 134 (مكابيين 16، 11ـ22؛ تاريخ اليهود XIII 228. . .).

وكانت بدايات حكم يوحنا هيركان (134-104) صعبة. لقد نجح بطلماوس في الهرب إلى فيلادلفيا بعد أن قضى على أخويه، خصمه وأمه. وبادر أنطيوخس السابع إلى التدخل عسكرياً وضرب الحصار على أورشليم. وأعلن السلوقي بأنه سيحترم الديانة اليهودية. وبعد أن هدد يوحنا هيركان بالمجاعة وافق على الإستسلام بمقابل جزية من 500 قنطار من فضة وتدمير جدران أورشليم (حوالي سنة 132). جاءت هذه الشروط التي كانت لينة نسبياً، وذلك، إلى حد ما، بفضل الدبلوماسية الرومانية (تاريخ اليهود XIII 236. . . XIV، 247. . .) جاءت تمالىء المستقبل. وإذ استعاد هيركان قسماً من كنز قبر داود كان على الأرجح هو أول حسموني يسك عملة، فدفع الجزية التي وعد بها واستأجر مرتزقة لمرافقة أنطيوخس السابع في حملته ضد الپارتيين.

واستغل يوحنا هيركان بعد قليل الخصومات الداخلية بين السلوقيين لاحتلال مأدباً والأرض المؤابية. واتجه بعد ذلك من آدوم فاحتل آدورا وماريسا (سنة 112/ 111). ولم يسمح للناس بالبقاء إلاّ إذا اختتنوا وحافظوا على الشريعة اليهودية (تاريخ اليهود XIII 254 - 258). ويهاجم أخيراً السامرة ويحتل شكيم ويدمر هيكل جبل جريزيم (سنة 111) بعد مئتي سنة تقريباً من بنائه، ويحاصر العاصمة. ويلوذ السامريون الجائعون بأنطيوخس التاسع الذي هزم للمرة الأولى قرب سيتوپوليس (بيت شان) وعاد مع الجنود المصريين التابعين لبطلماوس لاتير (116-107). ولم تؤدِّ هذه العودة إلى أية نتيجة حاسمة. لقد احتلت الجيوش اليهودية سيتوپوليس ووادي أسدريلون وبعد سنة من الحصار يحتل يوحنا هيركان السامرة ويتركها قاعاً صفصفا. بعد تدمير هيكل جريزيم يأتي التدمير التام للسامرة ليَسم القطيعة النهائية بين اليهود والسامريين الذين أصبحوا بعد ذلك التاريخ أعداء وراثيين.

يتيح لنا تاريخ الإنشقاق السامري في القرنين الرابع والثالث أن نفهم لماذا لا يعتبر السامريون إلاّ الكتب الخمسة كتابة قانونية. في الواقع إن الدفاع عن الكتب المقدسة ضد الإجراءات الهلينستية هو الذي حثّ اليهود على تحديد الكتب

المعتبرة كتاباً مقدساً، خاصاً بالتقليد القومي. يفسر ضم سفر دانيال الذي يبرر الثورة المكابية في هذا السياق التاريخي على الأرجح. وأصبحت هذه اللائحة من الكتب المقدسة التي يجب الدفاع عنها ضد المضطهدين والتي تحتوي الشريعة والأنبياء والكتب الأخرى، ملكاً عاماً لمختلف الحركات (أو «المذاهب») اليهودية اللاحقة: الفريسيين والصدوقيين والأسينيين.

ويبقى الأصل الصحيح والتوجه الدقيق لكل هذه الحركات غامضاً وخاضعاً للنقاش غير أنها تبدو على صلة بالحسيديين (حاسديم)، اليهود الأوفياء للشريعة والذين دعموا الثورة المكابية. وعندما توجه هؤلاء بنشاطهم العسكري نحو تأكيد سلطة سياسية شخصية تنصل الحسيديون من هذا التوجه السياسي ليكتفوا بالضمانات الخاصة بالحرية الدينية واحترام الشريعة (مكابيين أول 7، 13...). وزيادة على ذلك، إن تسمية يوناتان كاهناً أعظم (153) أثارت أنصار الكهنوت الصدوقي بصراحة أكثر فأكثر على الحشمونيين. ومن المرجح أنه من أجل إسكات هذه المعارضة دعا سمعان إلى جميعة عامة سنة 140. إن نص المرسوم النهائي بتأكيده عدة مرات على سلطة سمعان على الكهنة وعلى إدارة الأقدار (مكابيين أول 14، 41...)، وبتمثيله الكهنوت الحشموني كاحتياطي، يوحي (هذا النص) بأن سلطة سمعان ظلت عرضة للإنتقاد من قبل فئة مؤلفة أساساً من كهنة يناصرون كاهناً أعظم صدوقياً. وعلاوة على ذلك، فإن هذه الإشارات تترك الكثير من الأمور في الظلمة: ويبدو أن الحسيديين انقسموا إلى قسمين:

- تيار أكثر تقليدية ظل يدعو إلى كاهن أعظم من السلالة الصدوقية.

- تيار أكثر تشبثاً بالمحافظة على الشريعة أكثر من تشبثه بقضية الخلافة الكهنوتية، ارتضى كهنوت سمعان «المؤقت» وانفصل عن سائر الحسيديين، من هنا، ربما، أعطي اسم الفرّيسيين (پيروشيم = انفعاليون) لهذه الفئة.

اعتمد يوناتان وسمعان على هؤلاء الفريسيين الذين كان قادتهم أعياناً علمانيين منغمسين في دراسة الشريعة وكانوا يقيمون وزناً لأحكام القضاء أي تقليد القدماء غير المكتوب في الشريعة. غير أن الفريسيين انتقدوا كهنوت يوحنا هيركان بحجة أن أمه سبية واعترضوا على ادعاء غير داودي للملكية. وصادف هذا الموقف الفريسي صدى لدى الشعب وأثار تمرداً أخمده يوحنا هيركان بعنف

(تاريخ اليهود XIII، 291ـ298). وانضم الملك منذئذٍ إلى مواقف «الصدوقيين وعلى الأرجح الحسيديين الصدوقيين الذين كان الوقت وضرورات الأعمال كافيين لهم لتشريع الكهنوت الحشموني. غير أن الحسيديين الصدوقيين لم ينضموا إلى يوحنا هيركان. أمّا المتصلبون الذين رفضوا الإنضمام فشكلوا فريق «الأسينيين» الذين انتظموا في معارضة دائمة وأول الأسينيين الذي ذكره يوسف هو يهوذا الأسيني الذي وجد في عهد أريستوبول الأول (تاريخ اليهود XIII، 311ـ313).

وكانت النهاية الهادئة لعهد يوحنا هيركان مؤاتية لإطلاق أعمال ضخمة وخاصة بناء أسوار أورشليم التي هدمها أنطيوخس السابع. وبعد موت هيركان سنة 104 أعلن إبنه البكر يهوذا والمسمى أيضاً أريستوبول نفسه «ملكاً». ولم يبقَ في سدة الحكم سوى عام واحد. لقد سجن أكثر إخوته وكذلك أمه التي ماتت في السجن وقتل أخاه انتيغون لدى عودته من حملة عسكرية إلى الجليل. وفي عهده ألحق الجليل الأوسط وإيطوريه بالمملكة الحشمونية وخضع سكانهما لعملية الختان وللشريعة اليهودية.

وعند موت أريستوبول الأول حررت امرأته صالومه إخوته الثلاثة المسجونين وتزوجت على الأرجح من أكبرهم سناً عملاً بشريعة زواج السلطة وبهذا عهدت إليه بالملكية. فيتخلص الكسندر حنّا (Jannée) (103-76) أولاً من أحد إخوته الذي يطالب بالمملكة بينما يبقى الآخر على قيد الحياة ولكن بعيداً عن شؤون السياسة، فحكم البلاد بيد من حديد وقمع بقسوة حركات التمرد الداخلية التي كانت تدعمها الحركة الفريسية التي كانت على ما يبدو ساندت تمرد الفلاحين على الضرائب الملكية الباهظة. وإستناداً إلى الأختام لقد كان يحمل لقباً مزدوجاً «ملك» و«كاهن أعظم». وكان يرتاح وهو على رأس جيش يقوم بحملة أكثر من ارتياحه إلى الخدمة الطقسية في الهيكل. لقد جند جيشاً من المرتزقة بعضهم پيزيديون[1] وقيليقيون وشنّ حروباً كثيرة حيث ذاق حلاوة النصر ومرارة الهزيمة.

حاول أولاً الإستيلاء على بطلمايس (عكا) فاستنجدت ببطلماوس لاتير.

---

(1) نسبة إلى بيزيديا Pisidie منطقة قديمة في آسيا الصغرى.. م..

فأبحر هذا من قبرص فاضطر حنّا (Jannée) إلى رفع الحصار. وبعد قليل استوى بطلماوس لاتير على اسوكيس (Asochis) في الجليل ثم على سيتوپوليس (بيت شان) وانتصر على حنّا (Jannée) على شواطىء الأردن في زوفون. وبعد أن طلب حنّا (Jannée) مساعدة كليوپاطرة التي أرغمت بطلماوس على الإنسحاب إلى قبرص، وجد نفسه سيد المنطقة، فتوجه عندئذٍ نحو بلاد جلعاد فاحتل غادارا وآماتونت ولكن تيودور بن زينون يفاجئه ويستعيد كل الممتلكات بعد أن يقتل 10000 يهودي، فيهاجم حنّا (Jannée) عندئذٍ شاطىء فلسطين ويحتل رافيا (Raphia) ويتقدم نحو رينوكولور (العريش) ثم يصعد بمحاذاة الشاطىء ويحتل أنتيدون. وهكذا بعد أن يعزل غزة يحتلها بعد حصار دام سنة ويفتك بجزء من سكانها (حوالى سنة 96).

ولم يُعِد هذا الإنتصار الخارجي علاقاته بالفريسيين. بل على العكس من ذلك، لقد أثار هؤلاء الشكوك حول شرعية كهنوته فيهزأ به الشعب علناً يوم عيد المظال. وانتقاماً لذلك يقتل الملك حوالى ستة آلاف شخص.

ويتحول عندئذٍ من جديد نحو شرقي الأردن فيأمر بهدم مدينة أماتونت ويخضع أرض جلعاد وبلاد الموآبيين. ولكن عوبوداس الأول ملك الأنباط هزمه إذ نصب له كميناً عندما كان يهاجم هضبة الجولان. وعلى أثر هذا الانتصار خضعت موآب وجلعاد لهيمنة الأنباط.

وعززت هذه الكارثة من المعارضة الداخلية (معارضة الفريسيين وعلى الأرجح الأسينيين). وتوالت حركات التمرد والمذابح على مدى ست سنوات (حوالى (93-88) وقد زهق فيها حوالى 50 ألفاً من النفوس. وعندما حاول الملك أن يفاوض الفريسيين، رفض هؤلاء أن يدخلوا في أي نقاش ولجأوا إلى الملك السلوقي ديمتريوس الثالث (95-88) الذي تغلب على حنّا (Jannée) بالقرب من شكيم. غير أن 6000 يهودي من جيش ديمتريوس تخلوا عنه بعد ذلك فاضطر هذا الأخير إلى الإنتقال إلى سوريا. ويسحق حنّا (Jannée) عندئذٍ المتمردين ويقبض على قادتهم المختبئين في بيميسليس (Béméselis) (Misilya جنوبي جنين؟) واقتيد 800 منهم مصفدين إلى أورشليم حيث صلبوا أثناء مأدبة في حين ذبح نساؤهم وأولادهم على مرأى منهم. دب الذعر في 8000 متمرد فهربوا

لاجئين إلى دمشق!؟ وظلوا هناك حتى موت الملك. ولم يعد يرد، بعد ذلك، ذكر لأي تمرد داخلي على حنَّا.

وعندما قام أنطيوخس الثاني عشر (87-84) بحملة على الأنباط حاول حنَّا عبثاً منع مرور الجيوش السلوقية في السهل ببنائه خط دفاع بين كفرسبا ويافا. لكن أنطيوخس الثاني عشر هُزِم وقُتِل جنوبي البحر الميت. وتسلم أريتاس الثاني السلطة في دمشق. وبعد قليل زحف ملك الأنباط على اليهودية (يهوذا) وتغلب على حنَّا قرب حاديدا فيطلب الحسموني عقد مصالحة ولكنه بعد ذلك بقليل يزحف من جديد على شرقي الأردن ويحتل المدن العشر والجولان (حوالي 80-83).

وهكذا ففي نهاية حكم ألكسندر حنَّا كانت المملكة الحسمونية تشمل اليهودية وآدوميا وسهل فلسطين وسهل شارون والسامرة والجليل حتى جبل طابور وأرض جلعاد وبلاد موآب. وقد فرض الملك على جميع الشعوب المغلوبة الختان والشريعة اليهودية، ولم يمر هذا الإجراء دون إثارة بعض حركات التمرد كما في پلاً (Pella). ولكي يضمن حنَّا سلامة مملكته في وجه الأنباط أمر ببناء قلعتين عظمتين: أسكندريون في مواجهة أرض جلعاد وماكيرونت (Machéronte) في مواجهة الموآبيين. وقد تميزت السنوات الثلاث من الملك بمرض الملك الذي مات سنة 76 أثناء حصار رجبا (Ragaba) في أرض جيرازا (=جَرَش).

وعند موت ألكسندر حنَّا تسلَّمت زوجته ألكسندرا أعباء السلطة السياسية (76-67) وفوضت إلى إبنها البكر هيركان (هيركان الثاني) مهمة الكاهن الأعظم. وتصالحت مع الفريسيين الذين تخلت لهم عن السياسة الداخلية. فحرر المساجين وعاد الأسرى واكتسب الاجتهاد الفريسي قوة القانون. وكان مجلس الشيوخ الذي كان يرئسه الكاهن الأعظم، مؤلفاً حتى ذلك التاريخ من كهنة وأشراف أغنياء من الحزب الصدوقي. وأوصلت ألكسندرا إلى المجلس عدداً كبيراً من الكتبة وعلماء الشريعة من حزب الفريسيين وعلى رأسهم سمعان بن شيطاح... ومارست ألكسندرا في الخارج سياسة «السلام المسلح»، فكانت غزوة إلى سوريا، بقيادة أريستوبول، كافية لإرهاب بطليمس بن منايوس الذي كان يهدد دمشق. وكانت

الهدايا الثمينة التي قدمت لـ تيغران (Tigrane) الذي يحاصر بطلمايس بثلاثمئة ألف رجل كافية لتهدئته، ولا سيما أنه كان عليه أن يواجه الرومان بعد قليل.

وبالرغم من أن هيركان الثاني قد عينته ألكسندرا ملكاً قبل وفاتها فإن أخاه أريستوبول يهاجمه ويقهره بالقرب من أريحا. ولم يلبث هركان الذي التجأ إلى قلعة الهيكل، أن صالح أخاه: فيصبح أريستوبول الملك (67-63) بينما يكتفي هيركان بلقب «أخي الملك». لكن أنتيپاتر حاكم آدوميا والرجل القوي في حزب هيركان لم يرضَ بهذا الإتفاق. فاستدعى هيركان إلى البتراء بالقرب من صديقه أريتاس الثالث وعهد إليه بجيش؛ وبمساعدة هذا الجيش هزم أريستوبول الذي لجأ إلى أورشليم: «ولقد أسر هناك دون تدخل، في ذلك الوقت، من القائد الروماني سكوروس الذي أمر برفع الحصار» (127-I-BJ). وينسحب أريتاس عندئذٍ إلى فيلادلفيا (ربة عمون) ويبطش أريستوبول بأنصار هيركان في پاپيرون.

وعندما وصل پومپيوس إلى دمشق (ربيع سنة 63) حاول كل من الأخوين استمالته لدعم قضيته. وكانت الغلبة لهيركان وأنتيپاتر. وبعد تطورات مختلفة أسر پومپيوس أريستوبول وحاصر بمساعدة أنصار هيركان، آخر أنصار أريستوبول المختبئين في هيكل أورشليم. ونفذ الهجوم في الشهر الثالث من الحصار (خريف 63) فيدخل پومپيوس إلى قدس الأقداس. وأعيد هيركان إلى وظيفته ككاهن أعظم ووال ولكن اليهودية اضطرت إلى دفع الجزية. وفصلت المدن العشر والسامرة ومدن الساحل عن الولاية الرومانية في سوريا تحت إشراف سكوروس. وينسحب پومپيوس مصطحباً معه أسرى إلى روما هم أريستوبول وعائلته، وهكذا ينتهي استقلال مملكة الحسمويين.

وظلت ملكية ألكنسدرا في التقليد اليهودي اللاحق نوعاً من العصر الذهبي، وذلك، على الأرجح، لأن الفريسيين كانوا يقومون بأعباء الشريعة، ولأن عصرها أيضاً كان عصر سلام ورخاء اقتصادي في مملكة يهودية في ذروة توسعها.

وكان هذا العصر الذهبي قصير المدى لأن القادة الرومان كانوا يقتربون من اليهودية. وكانت المملكة الحسمونية تفتقر إلى الوحدة السياسية في مواجهة هذه القوة.

ولم يكن بإمكان التوسع العسكري الحسموني والتهويد القسري ليزيلا التنافر بين مختلف المقاطعات. كانت المدن الساحلية والمدن العشر تشعر بأنها هلينية أكثر مما هي يهودية. ولم تكن آدوميا لتستطيع أن تقضي على تجذرها الآدومي والجليل على تقاربها الثقافي من فينيقيا. أمّا بالنسبة إلى السامريين، وإن كانوا بأكثريتهم الساحقة إسرائيليين فإن حقدهم على اليهود جعل التحامهم بالمملكة الحسمونية موضع شك.

كان شعب اليهودية نفسه منقسماً إلى ثلاثة أحزاب كبيرة لم يكن أي منها ليرتضي السلالة الحسمونية كما يعرف ذلك من سفارة مبعوثي الشعب إلى پومپيوس (تاريخ اليهود، XIV، 41). ويكاد تاريخ السلالة الحسمونية يسجل كتتابع لسلطة الفريسيين (أيام يوناتان وسمعان، وفي بداية حكم يوحنا هيركان وأيام ألكسندرا وهيركان الثاني) والصدوقيين (القسم الأكبر من عهد يوحنا هيركان وأريستوبول الأول وألكسندر وأريستوبول الثاني) في حين أن الأسينيين، الذين سلكوا طريق المعارضة الدائمة، انطووا على جماعاتهم المحكمة التنظيم وعلى تأملاتهم الدينية الأخروية: وتتيح اليوم التنقيبات في قمران قرب البحر الميت والمخطوطات التي وجدت هناك الوقوف على الحياة الحسية لهذه الجماعات الأسينية وعلى نشاطها الفكري. ويبدو أن الفريسيين الذين ظلوا أطول مدة ممكنة في السلطة أفادوا من دعم شعبي أكيد، مع معرفتهم بالشريعة وأهمية مدارسهم وخاصة في القرى، وكانوا يتمتعون بنفوذ عظيم لدى الشعب المأخوذ بحياتهم البسيطة والمستقيمة. وكان الصدوقيون، المنخرطون خاصة في الأوساط الكهنوتية وبين علية القوم وصفوف الجيش يمثلون طبقة اجتماعية أكثر يسراً إذ كان غناها يعوض إلى حد ما، قلة عددها. كانوا أقوياء في أورشليم ولكنهم ضعفاء في الريف.

وتميز العهد الحسموني أيضاً بنهضة الأدب العبراني؛ وإذا كان التعليم العبراني للفريسيين في ذلك العهد شفهياً في أساسه على ما يبدو فإننا لا نعرف شيئاً تقريباً عن تعليم الصدوقيين. وبالمقابل إن مخطوطات بحر الميت قد أكدت أهمية التراث الأدبي العبراني أو الآرامي ذي الأصل الأسيني: حنوخ Hénoch، Jubilés (= سنوات الله)، وصايا البطاركة، رؤى عمران، قوانين الجماعة

والرهبانية، وثيقة «دمشق»، تبركات، أناشيد، تفاسير التوراة، ملف الحرية، ملف الهيكل. وعدا ذلك فإن الملكية الحسمونية كانت في أساس المؤلفات التاريخية مثل الحوليات المفقودة لحبرية يوحنا هيركان وسفر المكابيين الأول الذي لم يصل إلينا إلاّ عبر الترجمة اليونانية.

إن الحركة الناشطة لليهودية أثناء عهد الحسمونيين يجب ألا تنسينا أهمية اليهود في بلاد الإنتشار. إن قائمة الأسماء الموجهة إليهم رسالة القنصل لقيانوس ميتلّوس إلى الكاهن سمعان تتيح وضع جدول جغرافي شبه كامل ليهود الشتات سنة 142 (مكابيين أول 15، 23. . .) وتبين هذه القائمة بوضوح أنه كانت هناك جماعات يهودية على امتداد الحوض الشرقي للبحر المتوسط تقريباً.

وفيما عدا بلاد ما بين النهرين وآسيا الوسطى استقرت جماعة يهودية مهمة جداً في مصر. وكان في الإسكندرية آنئذٍ جماعة يهودية من حوالى 100000 عضو. وقد تلقى الكاهن الصدوقي أونيّا الرابع من بطليمس السادس فيلوميتور أمراً ببناء هيكل يهودي في ليونتوپوليس (تاريخ اليهود XIII، 62ـ63). ومن تفسيرات هذا الأمر على الأرجح أن الهيكل سيخصص للجالية العسكرية اليهودية في ليونتوپوليس التي كان أونيا زعيمها الديني. وعندما تدخلت الجيوش المصرية في فلسطين ضد بطليمس لاتير كان على رأسها قائدان يهوديان: خلكيا وعننيا. إن هذا الأخير هو الذي نصح كليوپاترا بعدم مهاجمة ألكسندر حنّا(تاريخ اليهود XIII، 348ـ255). ويوضح هذا المثل الروابط التي توحد بين يهود مصر ويهود فلسطين، ويؤكد الروابط الثقافية ترجمة المؤلفات العبرانية المحررة في فلسطين وتبنيها مثل: سِفر ابن سيراخ وسفر المكابيين الأول. ويشير مثل أونيا أيضاً إلى أن مصر استقبلت بنوع خاص يهوداً صدوقيين (ابن سيراخ 51، 12)؛ وكذلك ليس ما يثير العجب أن الأسينيين قد تقربوا من زهاد اليهود المصريين الذين تحدث عنهم فيلون الإسكندري في بداية عصرنا الحاضر.

II ـ السلطة الحسمونية تخضع لروما (63-37)

على أثر استيلاء پومپيوس على أورشليم أُلحِقَت اليهودية بالإمپراطورية الرومانية لحوالي أربعة قرون. ولم يعد لهيركان الثاني الحاكم والكاهن الأعظم الحق

بلقب ملك، الأمر الذي ينسجم مع عقيدة الفريسيين الذين كانوا يدعمونه. ولما كان هيركان وأنتيپاتر يخضعان لسكورس، الحاكم الروماني في سوريا، كانا يرسلان إليه المؤن أثناء حربه ضد الأنباط وكان أنتيپاتر يقوم بدور وسيط عند عقد معاهدة سلام. (BJ, I, 159) غير أن أريستوبول وأولاده لم يكفوا عن محاولة الدفاع عن حقوقهم في فلسطين.

وفي سنة 57 هرب ألكسندر بن أرستوبول، أثناء نقله إلى روما. فجمع 10000 جندي من المشاة و1500 فارس وراح يهدد أورشليم. فيرسل غابينيوس الحاكم الجديد على سوريا نائبه مارك أنطوان الذي أصبح فيما بعد أحد الحكام الثلاثة، فيتغلب هذا بالقرب من أورشليم على ألكسندر فلجأ إلى أسكندريون ثم لم يلبث أن استسلم. فاكتسح غابينيوس ألكسندريون وهيركانيا وماكيرونت وأعيد تعيين هيركان كاهناً أعظم على أورشليم لكنه جرد من صفة حاكم ومن سلطته السياسية. وقسم اليهود الذين يحكمهم المجلس الأعلى في أورشليم إلى خمس دوائر قضائية: أورشليم، غدارا وأماتونت (Amathonte) وأريحا وصفوريه (Sepphoris) (BJ .I ,1698). وفي سنة 56 هرب أريستوبول وإبنه من روما وحاولا تحريض اليهودية ولكن الرومان قهروهما فاقتيدا أسيرين إلى روما. وفي سنة 55 قام ألكسندر بمحاولة جديدة ولكن غابينيوس قمعها بسرعة. وفي هذه الأثناء استغل أنتيپاتر المناسبة ليضع نفسه في خدمة غابينيوس وخاصة عند غزوته لمصر سنة 56/ 55. ومكافأة له على ذلك يخلع عليه غابينيوس لقب «معتمد عسكري» أو «مدير» اليهودية، وفي سنة 54 حل كراسوس محل غابينيوس فتسلط على كنز هيكل أورشليم وقتل في حرب ضد الپارثيين سنة 53. وحل محله كاسيوس (53-51) الذي قمع تمرداً جديداً لأرستوبول بإشراف پيتولاوس الذي أعدم بعد قليل بتحريض من أنتيپاتر.

وفي سنة 49 تندلع الحرب الأهلية بين قيصر وپومپيوس، فأراد قيصر أن يستخدم أريستوبول لاحتلال سوريا ولكن أنصار پوپيوس قضوا عليه وعلى إبنه ألكسندر. وبعد معركة فرسال وموت پومپيوس (سنة 48) ينضم هيركان الثاني وأنتيپاتر إلى قيصر. وعلاوة على ذلك، فإن أنتيباتر يدعم، عسكرياً ودبلوماسياً، حملة متريدات، حليف قيصر، إلى مصر (سنة 48/ 47) فيقود فيلقاً يهودياً مساعداً

ويحصل على دعم الأعراب وأمراء سوريا ويوحد بين الحاميات اليهودية في «أرض أونيا» شرقي الدلتا. ولكي يكافىء قيصر هيركان الثاني على عمله هذا يقر له لقبه الكاهن الأعظم ويعيد إليه لقب حاكم؛ ويمنح أنتيپاتر المواطنية الرومانية والإعفاء من الضرائب ولقب والٍ على اليهودية والإذن بإعادة بناء أسوار أوشليم. تؤكد المراسيم الرسمية هذه الحقوق (سنة 47-44) وتشير إلى أن يافا (Joppé) ومدن السهل ألحقت من جديد بهيركان الثاني (التاريخ القديم XIV، 191ـ212).

وبعد قليل يعين أنتيپاتر إبنه البكر فصائيل مسؤولاً عسكرياً في أورشليم وإبنه الثاني هيرودس مسؤولاً عسكرياً في الجليل. ويثير نجاح هيرودس في الجليل حسد هيركان الثاني والطبقة الأرستقراطية: فاستدعي هيرودس لتبرير أعماله أمام المجلس الأعلى. وبدعم من سيكستوس قيصر حاكم سوريا وعلى أثر توسط غامض من القائد الفريسي سامياس (شيمايا؟) بُرِّئت ساحة هيرودس. فيعينه سيكستوس قيصر قائداً عسكرياً في سوريا المجوفة والسامرة (BJ, I, 2(3) (سنة 47/ 46).

وعلى أثر موت قيصر (15 آذار/ مارس سنة 44) ينضم أنتيپاتر وهيرودس إلى ساسيليوس باسُوس حاكم سوريا، نصير پومپيوس السابق. ويسرع هذا إلى طلب جزية من 700 قنطار (talents) قسمها أنتيپاتر على أعيان المملكة. ويدفع إبنه، لتوه، الجزية المفروضة عليه وهي 100 قنطار (talents). وبالمقابل ولما كان ماليخوس المكلف بمنطقة غُفْنة وعماوس واللد وتمنة قد تأخر بدفع الجزية بدأ كاسيوس بالزحف على هذا القطاع ولكن أنتيپاتر بادره بدفع 100 قنطار. ويسقط أنتيپاتر نفسه ضحية حسد ماليخوس الذي يقضي عليه بالسم. فما كان من هيرودس، بدعم من كاسيوس الذي عينه نائباً له على سوريا، إلاّ أن انتقم لأبيه بقتله ماليخوس قرب صور (سنة 43).

ويؤدي رحيل كاسيوس من سوريا (سنة 42) إلى سلسلة من الاضطرابات حاول أنتيغون ابن أريستوبول بواسطتها عبثاً الدخول إلى مسرح الأحداث في حين يحتل ماريون، طاغية صور، قسماً من الجليل. وفي سنة 42 وعلى أثر انتصار أنطونيوس وأوكتاڤيوس في فيليپي (Philippes)، جاءت عدة وفود يهودية إلى أنطونيوس تشكو إليه ولدي أنتيپاتر. واستجابة لذلك يعين فصائيل وهيرودس

والين مكلفين إدارة شؤون اليهودية.

وفي سنة 40 يهاجم البارثيون سوريا وفلسطين ويدعمون أنتيغون الطامح إلى عرش اليهودية؛ ويتواجه الحزبان في أورشليم. ويدعو القائد البارثي عندئذٍ فصائيل وهيرودس للمثول أمام سيده المرزبان بارزافارنيس لعقد الصلح، فيرفض هيرودس. ولكن فصائيل يقبل مع هيركان الثاني، ولم يلبث أن يسجنهما البارثيون. وعند تلقي هيرودس هذا النبأ وضع عائلته في مكان أمين في مسّادة (Massada) وذهب يتحصن في البتراء. يحتل البارثيون أورشليم، فينتحر فصائيل، ويُقتاد هيركان الثاني أسيراً إلى پارتيان بعد أن مزَّق له أنتيغون أذنه لمنعه من ممارسة وظيفة الكاهن الأعظم من جديد. وأصبح أنتيغون ملكاً وكاهناً أعظم كما تشير إلى ذلك قطع النقود. ولكنه لم يتمتع طويلاً بهذا اللقب (40-37). ولما كان هيرودس لقي استقبالاً سيئاً من ملخوس الملك النبطي انتقل إلى الإسكندرية ومنها أبحر إلى روما. وهناك لقي استقبالاً حسناً من أنطونيوس وأوكتاڤيوس اللذين استفادا فيما مضى من دعم أنتيپاتر، وقد سرّهما أن يواجها أنتيغون الذي نصبه البارثيون فأعلنا، بواسطة مجلس الشيوخ، هيرودس ملكاً على اليهودية.

ويعود هيرودس إلى فلسطين وبدعم من الجيش الروماني الذي تغلب على البارثيين، يحتل يافا (Joppé) ويتفقد عائلته في مسادة. ولكن إذ أساء القائد الروماني سيلو مساندته اضطر إلى التخلي عن مهاجمة أورشليم. وأثناء الشتاء، وإذ يصبح سيد الساحل وآدوميا والسامرة ينجز هيمنته على الجليل طارداً منها عصابات اللصوص والفارين من وجه العدالة. ولما كان ماكيراس القائد الروماني يتخذ موقفاً غامضاً يلتقي هيرودس أنطونيوس في سُميساط فيعطي هذا تعليمات دقيقة لسوسيوس حاكم سوريا. وأثناء غياب هيرودس يزداد موقف أنصاره سوءاً فيعتقل يوسف، أخو هيرودس في كمين قرب أريحا. ويثور الجليل ويغرق أعيان من أنصار هيرودس في بحيرة جنّاشرة. وبمساعدة من فرقتين تابعيتن لسوسيوس يستعيد هيرودس بعد قليل السيطرة على الجليل وأريحا ويهزم أنصار أنتيغون بالقرب من إيسانه (Isana). وفي سنة 37 يحاصر أورشليم. وبعد حصار دام خمسة أشهر استطاعت جيوش هيرودس وفرق سوسيوس احتلال أورشليم. ويستسلم أنتيغون لسوسيوس. وينسحب هذا الأخير، بطلب من هيرودس الذي

يثقله بالهدايا. ويأمر بقطع رأس أنتيغون. وبهذا الإعدام ينتهي ملك آخر حسموني (37).

III ـ سلالة هيرودس والإمبراطورية الرومانية (37 ق.م. ـ 66 ب.م.)

1 ـ هيرودس الكبير (40-37-4 ق.م.)

كان هيرودس قائداً عظيماً لا يتراجع أمام أية عقبة ولا يتردد في أن يصبح قاسياً وقد فهم أنه لا يستطيع أن يصبح ولا أن يبقى ملكاً إلاّ إذا احتفظ بدعم الرومان وصداقة قادتهم. جهد هيرودس بادىء ذي بدء في أن يدعم سلطانه (حوالي 37-25). فبعد أن أطاح أنتيغون أعدم 45 وجيهاً من حزبه وهم على الأرجح صدوقيون أعضاء مجلس الشيوخ (السنهدرين). استدعى هيركان الثاني من بابل. وإذ لم يستطع هذا أن يمارس وظيفة الحبرية العظمى، عين هيرودس كاهناً أعظم يدعى عنانيل (37-36 ثم 34. . .) وهو كاهن صدوقي على الأرجح عائد من بابل. غير أن الحسمونيين الذين حالفهم هيرودس بتزوجه من مريم إبنة ألكسندرا وحفيدة هيركان الثاني، دفعوا بالفتى أريستوبول الثالث أخي مريم: فيعينه هيرودس كاهناً أعظم وهو في السابعة عشرة من عمره (سنة 35). وإذ رآه بعد مدة أنه قوي الشعبية أمر بإغراقه في حوض ماء بالقرب من أريحا. وبدعم من كليوپاترا ملكة مصر، حصلت ألكسندرا على أمر بأن يستدعى هيرودس للمثول أمام أنطونيوس. وقد استطاع هيرودس أن يبرىء نفسه بفضل الهدايا التي حملها معه. ولدى عودته أعدم أخا زوجته يوسف واعتقل ألكسندرا. وعندئذ حصلت كليوپاترا من أنطونيوس على منطقة أريحا وعلى جزية الأنباط. وإذ امتنع هؤلاء عن دفع الجزية طلبت من هيرودس أن يعلن الحرب عليهم. وتزامنت هذه الحرب اليهودية ـ النبطية مع زلزال قضى على ما يقرب من 30000 قتيل (ربيع سنة 31) ثم مع انتصار أكتيوم (2 أيلول/ سبتمبر 31) التي حقق فيها أكتاڤيوس انتصاراً حاسماً على أنطونيوس، وبعد أن انتصر هيرودس على الأنباط بادر إلى موافاة أكتاڤيوس، ولكن بعد أن أطاح هيركان الثاني الشيخ. وفي رودس يثبت أكتاڤيوس أغسطس ملكية هيرودس (ربيع سنة 30) وأكثر من ذلك، فبعد انتحار

أنطونيوس في مصر أعاد أغسطس إلى هيرودس منطقة أريحا التي يضم إليها غادارا وهيپوس والسامرة وغزة وأنتيدون ويافا وبرج ستراتون. وبعد ذلك وعلى أثر مؤامرات حقيقية أو مزعومة أمر هيرودس بإعدام زوجته مريم (سنة 29) ثم حماته ألكسندرا (سنة 28). وباستثناء إبنة لأنتيغون تزوجت فيما بعد أنتيپاتر أحد أبناء هيرودس، لم يبق من السلالة الحسمونية من يستطيع أن يقلق سلطة هيرودس.

وعند ذلك انطلق هيرودس، مستخدماً التكنولوجيا الرومانية، بأعمال بناء عظيمة (حوالى سنة 25-13) كانت إحدى مفاخر عهده. وقد كشف علم الآثار عن متانة ما بنى وجماله. لقد بنى أولاً مسرحاً ومدرجاً في أورشليم، ولكن هذه الأبنية الوثنية أدّت إلى ردود فعل سلبية من قبل اليهود التقليديين. وشرع هيرودس فيما بعد بإعادة بناء الهيكل (حوالى 20/ 19) الذي جعل منه أحد أكبر وأجمل أبنية ذلك العصر.

رممت قلعة الهيكل بأبهة وقد دعيت أنطونيا في حين أنه سمّى جزئي قصره في أعلى المدينة: سيزاريوم وأغريپيوم. جدد الأسوار وبنى أبراجاً ثلاثة ضخمة وحصينة وهي: هيپيكوم وفَصائيل ومريام. وأسس وبنى مدناً أخرى عديدة منها: سيباست (السامرة)، پاتيون أو قيصرية ميليپوس قرب منبع الأردن، وقيصرية برج ستراتون وأغريپيوم (أنتيدون) وأنتيپاتريس (أفيق) فصائيليس (شمالي أريحا) كما بنى قلاعاً عديدة: سيپروس، وهيروديوم ومسادة وألكسندريون وهيركانيا وماكيرونت.

وبدت له بلاده صغيرة جداً فشيد أبنية عامة في مدن كثيرة على شاطىء المتوسط في طرابلس وبطلمايس وبيبلوس وبيروت وصور وصيدون ولاوديه (Laodiée) وعسقلان كما بنى في الجزر (كوس ورودس) ولا نذكر دمشق وأنطاكية وأثينا وسبارطة.

تأثر هيرودس بثقافة عصره فأحاط نفسه بهلينستيين مشهورين، وخاصة نقولا الدمشقي الأستاذ والصديق والمستشار وقد بلغت مؤلفاته التاريخية التي يذيع فيها أمجاد هيرودس حوالي 144 كتاباً اقتبس منها فلافيوس.

فعند منعطف عصرنا كانت ثلاث لغات رائجة في فلسطين: العبرية

والآرامية واليونانية هذا ما عدا اللاتينية المستخدمة في بعض الوثائق وفي الجيش. فأصر هيرودس على أن يتثقف ولداه بالثقافة اليونانية الرومانية فأرسلهما لتلقي دروسهما في روما. وكانت ذروة ملكية هيرودس زيارة أغسطس إلى سوريا (سنة 20) وقد ثبت له الإمبراطور ملكية هضبة الجولان ومنابع الأردن في حين عهد إلى فريروراس أخي هيرودس بربع ولاية پيريه.

وإذا كان هيرودس يبدو أكثر تأثراً بالثقافة اليونانية الرومانية منه باليهودية فإنه كسياسي ماهر كان يحاول ألاً يصطدم بقناعات اليهود التقليديين. لقد احترم الزعيمين الفريسيين (پوليون وساميسا) وتساهل مع الأسينيين وخاصة رئيسهم مناحيم. لقد أعفى هذين الحزبين من قسم الولاء لشخصه (تاريخ اليهود XV، 370 . . .). غير أن هيرودس ألغى الحبرية لمدى الحياة التي طالما وجه إليها السلوقيون أصابع الاتهام. فبعد عنائيل أسندت الحبرية العظمى إلى يشوع بن فيابي الأول. وفي سنة 22 عندما أراد هيرودس أن يتزوج من إبنة سمعان بن بويتوس عين هذا كاهناً أعظم (22-25)، (تاريخ اليهود XV ,320) وكان أصل عائلة بوتيوس من الإسكندرية وقد لعبت دوراً هاماً على رأس الصدوقيين، إلى درجة أن التقليد الرباني كان أحياناً يستعمل تعبير بويتوسي مكان صدوقي.

وفيما يخص الإدارة المالية للمملكة لقد أوصلت الهدايا التي يجب أن ترسل إلى الرومان وخاصة إلى أنطونيوس والأشغال العامة العظيمة إلى ضغط مالي بلغ حد الطاقة: وإستناداً إلى (318، XVII، AJ) بلغ الدخل السنوي حوالي 900 قنطار (Talent) لشعب يبلغ حوالي مليون إلى مليون ونصف من الأفراد. وتفادياً لانفجار الثورات خفض الضرائب إلى الثلث سنة 20 وإلى الربع سنة 14 (تاريخ اليهود XV، 365؛ XVI، 64). وعانت البلاد في بداية عهده، بالإضافة إلى زلزال سنة 31، عدة مجاعات وخاصة سنة 25/24، وكانت هذه المجاعات مرتبطة أكثر الأحيان بالسنة السبتية (أو السبعية) التي تأتي كل سبع سنوات والتي تمنع خلالها الشريعة اليهودية زراعة الأرض. وفي هذا الوضع الاجتماعي الصعب كان هيرودس يستخدم نفوذه وماله لشراء القمح وتنظيم المساعدة للأكثر حرماناً. وكان هذا العمل الفعّال يكسبه المزيد من الشعبية (تاريخ اليهود، XV، 299-316).

واستخدم هيرودس نفوذه لدى أغسطس للدفاع عن حقوق اليهود في بلاد الشتات وليؤكد الإمتيازات التي منحها البطالسة والسلوقيون. ومن أجل هذه الغاية جمع صديقه ومستشاره نقولا الدمشقي ملفاً من المستندات الرسمية المختلفة التي تتحدث عن حقوق اليهود في بلدان الشتات وخاصة في آسيا الوسطى وفي الجزر الإيونية (تاريخ اليهود، XII، 125؛ XIV، 213؛ XVI، 27. . . 160. . .). وكان يمثل بين هذه الحقوق، ليس فقط حق العيش بحسب الشريعة اليهودية ولكن أيضاً حق إرسال التقدمات للهيكل، لأن سرقة هذه التقدمات مثل سرقة الكتب المقدسة كانت تعتبر كالقدسيات وكان يعاقب عليها على هذا الأساس. وفي هذا العصر انتشر التبشير بالدين اليهودي الذي أدّى كردة فعل إلى حركة مناهضة اليهودية وهما حركتان تواجهتا عدة مرات في القرن الأول من عصرنا، وقد لعب اليهود المنتشرون، الذين يقدر عددهم بعدة ملايين، دوراً لا يستهان به في مجالي الاقتصاد والثقافة في الإمبراطورية الرومانية.

وتميزت السنوات الأخيرة لهيرودس (حوالى 13-4) بدسائس بيتية بسبب الخلافة. وقد عمل انتيپاتر بن هيرودس من زواجه الأول من دورا على التخلص من إبني مريم: ألكسندر وأريستوبول وفي النهاية قُتِل هذان الأخوان (حوالى سنة 7) وقبض على أنتيپاتر هو أيضاً وقتل وذلك قبل خمسة أيام فقط من موت هيرودس (سنة 4 ق. م.).

2 ـ خلافة هيرودس (4ق. م. ـ 41 ب. م.)

فيما كانت بعض الاضطرابات تزعزع المملكة، باستثناء السامرة، حقق أغسطس وصية هيرودس مع بعض التعديلات الطفيفة.

وقسمت مملكة هيرودس إلى ثلاثة حاكميات أو أقسام:

أ) فيليب حاكم باتانيه وتراخو نيتيد وأورانيتيد (4 ق. م.ـ34ب، م.) كان شعب هذا القسم كثير الإختلاط وكان يتضمن سوريين ويونانيين ويهوداً. وتميزت ملكية فيليب الهادئة بشكل عام، بإعادة بناء مدينتين هما قيصرية فيليپس (پانياس) وجولياس (بيت صيدا)، الأولى عند منبع الأردن والأخرى عند مصبه في بحيرة جنّاشرة. وعند موت فيليپ ألحقت منطقته (أو ربعه) بسوريا (34-37) ثم أعطاها

غاليغولا لهيرودس أغريپا الأول.

ب) هيرودس أنتيپا حاكم الجليل وپيريه (4 ق.م.ـ39ب.م.) كان جزءا منطقة هيرودس أنتيبا أغنى بكثير من مملكة فيليپ، لكن الجليليين كانوا سريعي التمرد وهددت پيريه مرتين من قبل الأنباط. ومن أجل تدارك هذا الخطر تزوج أنتيپا بنت آرتياس ملك الأنباط. وتميزت بداية مملكته ببناء صفوريه (Sepphoris) وليڤياس المسماة جوليا (بيتارافتا) وخاصة المدينة الهلينستية طبريا.

وتميزت السنوات العشر الأخيرة لحكم أنتيپا بزواجه الثاني من هيروديا بنت أريستوبول حفيدة هيرودس الكبير وحماة الوالي فيليپ زوج إبنتها صالومه. وعلى أثر الزواج تحولت عداوته لحميّه الأول إلى حرب مفتوحة (سنة 36) ويتحدى آرتياس أنتيپا. فاحتكم هذا الأخير إلى طيباريوس لكنه لم يعره أذناً صاغية. وأحجم ڤيتليوس حاكم سوريا، عن مساندة أنتيپا. وعندما تسلم هيرودس أغريپا الأول أخو هيروديا الربع القديم لفيليپ (سنة 37) حاول أنتيپا أن يحصل على لقب «ملك» من كاليغولا، ولكنه انتزعه منه، فعزله كاليغولا ونفاه إلى لوغدونم (كونڤناروم؟= سان - برتران - دو - كومينج؟) مع هيروديا في حين أعطى ربعه لأغريپا الأول (سنة 40).

كان تململ الجليل وپيريه أثناء حكم هيرودس سبباً في ظهور ثلاث حركات يهودية جديدة.

الزيلوت أو أنصار العنف. ـ على أثر موت هيرودس، ثار يهوذا بن حزقيا «قاطع الطرق»، الذي كان هيرودس قد سجنه، على رأس انتفاضة مسلحة من أهل الجليل بعد أن سيطر على سلاح القصر الملكي في صفوريه؛ وبعد ذلك بقليل قام يهوذا الجليلي يدعمه صدُّوق الفريسي بانتفاضة ضد إحصاء قيرينيوس. ودعي أنصار الثورة المسلحة ضد الرومان «الزيلوت=الغيارى على الشريعة، أنصار العنف لأنهم كانوا يعتبرون الله «قائدهم الوحيد» (AJ ،XVIII ،23) لقد لعبوا دوراً سياسياً خطيراً تحت حكم الولاة الرومان وخاصة أثناء الحرب اليهودية سنة 66ـ74.

المعمدانيون. ـ في حدود السنة 27 (؟) انتشرت دعوة أذكاها تبشير يوحنا المعمدان. كان هذا يعلم عقيدة روحانية جديدة تقوم على التغطيس بالماء. انتشرت

هذه الدعوة خاصة في پيريه وأثارت حماسة الجماهير. خاف أنتيپا من طلائع تمرد. ومن قبيل الحيطة والحذر، وربما أيضاً لأن المعمداني انتقد بشكل مكشوف الزواج الثاني لأنتيپا سجنه هذا ثم أعدمه في قلعة ماكيرونت (116، XVIII، AJ) ويبدو أن قسماً من المعمدانيين انضم إلى يسوع الناصري.

الناصريون. ـ وفي العصر الذي وجد فيه يوحنا المعمدان تقريباً ظهر في الجليل مبشر يدعى يسوع الناصري صانع عجائب ألهبت حماسة الجماهير. وعندما علم أنتيپا بالأمر ساورته المخاوف والريَب. وسرعان ما انتشر الخبر فسعى أنتيپا إلى خنقه في مهده (لوقا 13، 31). أعلن يسوع مسيحاً من قبل تلاميذه ثم انتقل إلى أورشليم حيث ألقي القبض عليه وأخضع للاستجواب من قبل كبار الكهنة أعضاء مجلس الشيوخ (السانهدرين) وصلب بأمر من الوالي الروماني پيلاطس البنطي. غير أن تلاميذه ظلوا يذيعون بأنه ظهر لهم في اليوم الثالث لموته (63، XVIII، AJ) وشكلوا ما سمي بحزب أو حركة الناصريين (أعمال الرسل 24، 5).

ج) أركيلاوس حاكم اليهودية والسامرة وآدوميا (4 ق.م. ـ 6 ب.م.). حاول أركيلاوس عندما عاد من روما أن يحذو حذو هيرودس الكبير: خلع الكاهن الأعظم يوعازار بن بويتوس وعين مكانه أخاه إليعازر وما لبث أن أحلّ محله يشوع بن سيئه (Séé). أعاد بناء القصر الملكي في أريحا وأسس إلى شماليه مدينة تدعى أركيلاوس. أثار موقفه الاستبدادي إرسال بعثة من اليهود والسامريين إلى روما. فاستدعى أغسطس أركيلاوس إلى روما ونفاه إلى ڤيينا في غاليا.

د) اليهودية والسامرة وآدوميا تحت حكم الولاة الرومان (6ـ41 ب.م.). أدار الرومان، بطريقة مباشرة، اليهودية والسامرة وآدوميا بواسطة «مدير» من قبلهم وكان هذا يسكن عادة في قيصرية. وكان يأتي إلى أورشليم في مناسبة الأعياد. وكانت تحت تصرفه، من أجل فرض النظام، فرقة من المساعدين المتطوعين من بين سكان سهل شارون والسامرة فيما كان اليهود الأقحاح معفدين من الخدمة في الجيش الروماني. وكان المدير، بالإضافة إلى اضطلاعه بالمهمات العسكرية، يمارس العمل القضائي ويوجه الإدارة الملكية.

وكانت إحدى أولى مهمات كوپونيوس المدير الأول، هي تنظيم إحصاء

بإشراف قيرينيوس حاكم سوريا. واجه هذا الإحصاء مقاومة شعبية عنيفة وأدى إلى تمرد يهوذا الجليلي (كما مرَّ معنا) قسمت اليهودية إلى مديريات هي: أورشليم، غوفنه، أكراباتا، تمنه، اللد، عماوس، پيليه، هيروديوم وأريحا ويضاف إليها آدوميا وإنْغَدّي. وكانت الغاية من هذه المديريات تسهيل جمع الضرائب التي كان يجمع بعضها مباشرة من قبل الإدارة الرومانية فيما كانت الضرائب الأخرى مثل رسوم الجمارك يعهد بها إلى «عشّارين».

ولم يلغ المدير المؤسسات المحلية وتابع مجلس الشيوخ، الذي يرئسه كاهن أعظم، سن القوانين والقضاء بين اليهود باستثناء المواطنين الرومان، وكان كبار الكهنة الذين يعينهم مدير أو حاكم سوريا، ينتمون إلى عائلات أربع كبرى هي: فيابي، بوتيوس، حنّا أو كاميت؛ وهكذا عُينّ حنّا (6-15) إسماعيل بن فيابي الأول (حوالى 15-16) إليعازر بن حنّا Anne (حوالى 16-17) سمعان بن كميت (Kamith) (حوالى 17-18)؛ يوسف بن قيافا Caïphe صهر حنا Anne (حوالي 37-41). وما عدا الكاهن الأعظم كان مجلس الشيوخ مؤلفاً من 70 عضواً: بعضهم ينتمي إلى عائلات كبار الكهنة وأكثريتهم صدوقيون والآخرون وجهاء أغنياء وغيرهم من علماء الشريعة وأكثريتهم فريسيون. كان المدراء يتولون على فترات غير منتظمة: كوپونيوس (حوالي 6-9) ماركوس أمبيبولوس (حوالي 9-12) انّيوس روفوس (حوالي 12-15) ڤاليريوس غراتوس (حوالى 15-26). بيلاطس البنطي (حوالى 26-36) مارسلوس (36/37؟) ومارولوس (37-41). وحدها سياسة بيلاطس نعرف شيئاً عنها استناداً إلى معلومات فلاڤيوس يوسف وفيلون، وإلى الأناجيل وإلى كتابة وجدت في قيصرية. كثيراً ما كان يتخذ إجراءات حمقاء، ومثيرة أحياناً (قضايا الشعارات الرومانية، استخدام مال الهيكل لبناء قناطر أورشليم، والدروع المهداة إلى الإمبراطور). أخيراً وعلى أثر مذبحة سامريين عند سفح جبل غاريزيم وتجاوباً مع شكوى مجلس السامريين أرسل حاكمُ سوريا پيلاطسَ يؤدي حساباً عن تصرفاته في روما.

تميز حكم كاليغولا (37-41) بتبدل ملحوظ في السياسة الرومانية تجاه اليهود. وقد حمل كاليغولا «الوسيط الإلهي» على محمل الجد. أدّى هذا الموقف إلى فتنة ضد اليهود في الإسكندرية، لدى مرور الملك أغريپا (سنة 38) لأن الشعب

أراد أن يصنع تماثيل للإمبراطور في الهياكل. وبالرغم من سفارة فيلون إلى روما (40) فإن يهود الإسكندرية لم يعرفوا الطمأنينة إلاّ بعد موت كاليغولا. وعلاوة على ذلك، لقد أراد كاليغولا أن يُوضَع تمثاله في هيكل أورشليم. وتجاه مظاهرات اليهود الحاشدة الذين تدعمهم بعثة لهيرودس أغريپا، نجح حاكم سوريا پوبليوس پترونيوس بتأجيلها حتى موت كاليغولا في 24 كانون الثاني/ يناير 41.

3 ـ هيرودس أغريپا الأول (37-40-41-44)

وبعد حياة مليئة بالمخاطر نجح أغريپا بن أريستوبول وحفيد هيرودس في أن يحظى بعطف كاليغولا، ومنذ ارتقائه العرش منحه ولاية فيليپي القديمة (37) وبعد ذلك (حوالى سنة 40) ولاية هيرودس أنتيپا وكان في روما عندما اغتيل كاليغولا فدعم ارتقاء كلوديوس إلى السلطة فمنحه هذا الأخير اليهودية والسامرة. وحكم هيرودس أغريپا الأول الأراضي التي حكمها جده هيرودس العظيم.

اعتمد أغريپا خلال حكمه القصير على الفريسيين. ويروي التقليد اليهودي (المشناح) عدة أحداث تشهد على شعبيته. (بيكوريم Bikkourim 3,4، سوطاح Sotah 7,8). وفي ذلك العصر، وبفضل دينامية «الهلينستيين» بدأ تلاميذ يسوع الناصري بتشكيل مجموعات في بلاد الشتات وخاصة في دمشق وعلى شاطىء المتوسط وفي إنطاكية. وهناك دعوا للمرة الأولى مسيحيين (من كلمة ممسوح ملكاً). (حوالى 39-40؟) (أعمال الرسل 11، 19ـ26). أثار هذا التبشير الناصري وخاصة الإنفتاح على الوثنيين معارضة متزايدة من قبل الفريسيين. وبضغط منهم أوقف أغريپا بطرس ويعقوب أخا يوحنا: وقتل هذا الأخير (أعمال الرسل 12، 1...) (سنة 43/ 44).

حاول أغريپا أن يدعِّم أسوار أورشليم وأن يعقد مؤتمراً لأمراء منطقة طبريه، ولكن هذه الإجراءات التي أظهرت قدم الاستقلال تصدى لها بقوة مارسوس حاكم سوريا. وأخيراً مات أغريپا في قيصرية (سنة 44) تاركاً وراءه ولداً عمره 17 سنة. فوضع الإمبراطور كلوديوس فلسطين تحت سلطة والٍ روماني.

4 ـ الولاة الرومان (44-66)

إن الإدارة المباشرة للولاة، الذين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن العادات اليهودية ولم يكن همهم سوى الغش، أتت بحماقات كثيرة واستثارات كانت السبب المباشر للثورات وفي النهاية للحرب اليهودية.

وهكذا قمع كوسپيوس فادوس (44-46؟) ثورة توداس الذي قطع رأسه. وكان على طيباريوس يوليوس ألكسندر (46؟-48) أن يواجه مجاعة وأمر بإعدام يعقوب وسمعان ابني يهوذا الجليلي الذي يرجَّح أنهما كانا من قادة حزب الزيلوت (المتزمتين). وفي أيام ڤانتيديوس كومانوس (48 ـ حوالى 52) تكاثرت حركات التمرد والثورات. وكان الحادث الأخير سبباً في نفي كومانوس. وهو أن حجاجاً جليليين قتلوا في قرية سامرية ولم يقتص كومانوس من القتلة فقامت عصابة من الزيلوت وذبحت جيش كومانوس. رفعت القضية إلى الحاكم كوادراتوس الذي أرسل المبعوثين إلى روما حيث، بدعم من الفتى أغريپا، ربح اليهود قضيتهم.

عين كلوديوس أحد أعوانه المقربين المدعو فليكس (52-60؟). تزوج هذا الأخير دروسيلا أخت أغريبا ولكنه كان سيء الإدارة ومتحيزاً فأدّت سياسته إلى انتشار حزب الزيلوت.

وبعد أن أوقف إليعازر بلجوئه إلى الخيانة اضطر أن يواجه القتلة المأجورين (Sicaires)، الزيلوت المسلحين بالخناجر الذين قتلوا مواطنيهم حلفاء الرومان مثل الكاهن الأعظم يوناتان (AJ-XX-161). وظهر في هذه الحقبة أنبياء كثيرون وجمعوا الناس حولهم يعدونهم بالحرية، الأمر الذي اضطر الرومان إلى التحرك بسرعة فقتل فليكس أنصار «المصري» الذي كان يريد الدخول إلى أورشليم (171، XX، AJ). استغل كبار الكهنة هذا الاضطراب السياسي فاستأثروا بالعشور المتوجبة للكهنة الصغار، ما زاد التشنجات الاجتماعية تأزماً.

استدعى نيرون فليكس وعين مكانه پورسيوس فيستوس (60-62؟) فرحّل إلى روما بولس (شاول) وهو فريسي سابق أصبح قائد المسيحيين الأنشط الذي يعمل لقبول الوثنيين (في الدين المسيحي) (أعمال الرسل 25) وكان على فستوس أيضاً أن يقمع ثورة في الصحراء. ولدى موته عام 62 استغل الكاهن الأعظم

الصدُوقي حنّا (Anne) بن حنّا (Anne) الفراغ في السلطة لتصفية أعدائه وخاصة «يعقوب أخا يسوع» رئيس الناصريين في أورشليم (200، XX، AJ) وأدى استبداد حنّا Anne إلى تدخل أغريبا الثاني الذي عزله.

وخلال ولاية ألبينوس (62-64) ازداد الوضع السياسي والاجتماعي تدهوراً ولم يكن من هم لألبينوس سوى جمع المال. وكان القتلة، من أجل تحرير رفقاءهم المسجونين يلجأون إلى المزيد من أسر الرهائن بينما كان أنصار يشوع بن دمنه وأنصار يشوع بن غملائيل يقتتلون في شوارع أورشليم من أجل منصب الكاهن الأعظم.

استدعي ألبينوس إلى روما وقبل أن يغادر أفرغ السجون. وفي عهد خلفه جيسيوس فلوروس (64-66) ازدادت الحالة تأزماً بازدياد أعمال النهب، وأصبح الوضع مهيئاً لثورة عامة.

وفي هذه المرحلة (44-46) أعطيت سلطة تعيين كبار الكهنة وعزلهم لهيرودس الكلسي حفيد هيرودس (41-48) ثم لابن أخيه أغريبا الثاني (حوالى 50-92/93؟). وبعد ذلك تخلى هذا عن حقوقه في مملكة كلسيس وتلقى عوضاً عنها ربع فيليب الذي أضيف إليه جزء من الجليل ومن بيريه. وحاول أغريبا الثاني بكل هدوء وروية عبثاً أن يقنع متمردي أورشليم بعبثية ثورتهم. وقف في الحرب اليهودية إلى جانب الرومان حتى إن أخته بيرينيس كانت في وقت من الأوقات عشيقة تيتوس. وتوالى كبار الكهنة في تلك المرحلة بإيقاع سريع: أليونايوس بن كانثيروس (في حدود سنة 44)، يوسف بن كامي، حنانيا بن نَبَدَى (47، 59؟) إسماعيل بن فيابي الثاني (حوالي (59-61)، يوسف كابي (61-62) حنا بن حنا (62)، يشوع بن دمنه (62-63؟) يشوع بن جملائيل (63؟-65) متيّا بن تيوفيل (65-67).

IV ـ الحرب اليهودية (66-74؟)

في سنة 66 أخذ الحاكم فلوروس 17 قنطاراً (Talent) من خزانة الهيكل. فأدى هذا الحدث البسيط إلى نتائج متوالية... ثورات فانتفاضات وكانت النتيجة حرباً. وبعد أن حاول فلوروس قمع هذه الثورة بسفك الدماء، انسحب إلى

قيصرية، في حين أن المتمردين سيطروا على فناء الهيكل. وقام أغريپا الثاني بمحاولة مصالحة فرفضها المتمردون الذين لا يقبلون بفلوروس. وبتحريض من إليعازر الكاهن الأعظم، حنانيا، احتلوا مسَّادة وأوقفوا التقادم اليومية التي كانت تقرب للإمبراطور، وكان ذلك ثورة مكشوفة.

وبقيادة أغريپا الثاني والهيروديين وعائلات كبار الكهنة وخاصة حنانيا، ووجهاء الفريسيين حاول أنصار السلم سحق المتمردين بالقوة لكن جيش أغريپا الثاني هزم في أورشليم وقتل حنانيا وأحرقت القصور الملكية وذبح آخر الرومانيين بدم بارد (17 أيلول/ سبتمبر 66).

وانتشرت الحركة الثورية كاشتعال البارود. وشهدت الكثير من مدن سوريا وفلسطين مواجهات دامية بين اليهود والأمم (الغرباء) وكان الحزب الظافر يقضي غالباً على الحزب الأضعف. وظهرت آثار الثورة حتى في الإسكندرية حيث هلك الألوف من اليهود في حركات عصيان.

وجاء سيستيوس غالوس حاكم سوريا لمهاجمة أورشليم الثائرة على رأس الفرقة الثانية عشرة، ولكن بعد أن احتل الضاحية الشمالية فشلت محاولة الهجوم على الهيكل ففضل الإنسحاب، وتحول انسحابه إلى هزيمة عندما سقط في كمين ليس ببعيد عن بيت حورون. إن هذا الإنتصار الذي حققه المتمردون حوّل الثورة إلى حرب استقلال انضمت إليها السلطات التقليدية: كبار الكهنة والقادة الفريسيون والصدوقيون والأسينيون. وتنظمت الثورة: تسلم يوسف بن غوريون والكاهن الأعظم حنّنا (Anne) مسؤولية الدفاع عن العاصمة، ويشوع بن صافياس (Sapphias) وإليعازر بن حشيا تولجا مسؤولية الدفاع عن بيت آدوم، في حين كان على يوسف بن متّيا (المؤرخ فلاڤيوس يوسف) أن ينظم الجليل. حُصِّنت المدن والقرى ودرب الشعب على استعمال السلاح.

عندما علم نيرون بهزيمة سيستيوس عهد بمهمة إخضاع الثائرين إلى ڤسپازيان القائد المحنك. فاحتل هذا على رأس ثلاث فرق صفوريا في الجليل (ربيع 67) ثم حاصر يوسف في يوتپاتا التي سقطت في أول تموز/ يوليو. وبعد أن اتصل ڤسپازيان بجيوش أغريپا الثاني احتل طبريا وطريشه (Tarichée) ثم غمالا (Gamala) وجبل طابور. وفي نهاية السنة 67 سقط شمال فلسطين.

أدت هذه الهزائم المتتالية إلى تصلب التمرد، وإلى حرب أهلية في أورشليم حيث تسلم المسؤولية يوحنا من جسكالا تسلم الزيلوت السلطة وفرضوا كاهناً أعظم جديداً هو فنحاس من خبطه، وهو على الأرجح صدُّوقي. وبدعم من جماعة من الآدوميين صفَّى «الزيلوت» الوجهاء وأعضاء العائلات الكهنوتية.

وبعد أن أخضع ڤسپازيان پيريه في آذار/مارس 68 احتل أنتيپاتريس واللد ويمنيه (Jamnia) وعِمَّاوس واجتاز السامرة وانحدر إلى أريحا. وأوقف العمليات العسكرية عندما سمع بموت نيرون (9 حزيران/يونيو 68) وتبعه خبر اغتيال غالْبا (15 كانون الثاني/يناير 69). وبعد أن استراح ما يقرب من عام، عاد ڤسپازيان في أيار/حزيران/مايو - يونيو 69 فاستأنف العمليات العسكرية واقترب من أورشليم. وقد سقطت فلسطين بكاملها عملياً في يد الرومان باستثناء العاصمة وهيروديوم ومسَّادا وماكيرونت. وفي هذا الوقت كان سمعان بارجيورا خصم يوحنا جيسكالا قد نجح في اتخاذ موقع في أورشليم. وفيما اختارت جيوش غربي الإمبراطورية الرومانية ڤيتلّوس إمبراطوراً قررت جيوش الشرق اتخاذ ڤسپازيان لهذا المنصب (في تموز/يوليو 69). فترك هذا إبنه تيطوس ينجز إخضاع فلسطين واستعد بعد مقتل ڤيتلّوس (20 كانون الأول/ديسمبر 69) للدخول إلى روما.

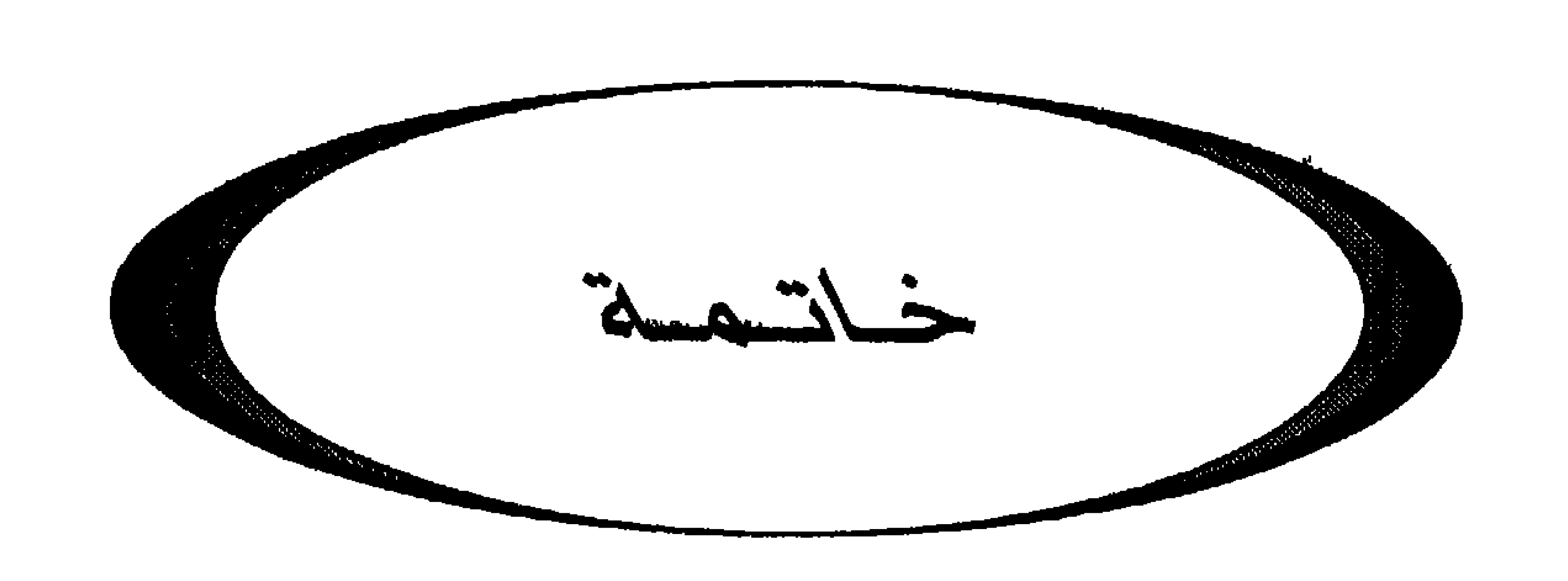
وقبل فصح سنة 70 بدأ تيطس بحصار أورشليم. هاجمت جيوشه المدينة من الجهة الشمالية فسيطرت على السور الأول ثم على السور الثاني. وفيما كان يوحنا جيسكالا يتولى الدفاع عن انطونيا والهيكل وسمعان بارجيورا يدافع عن أعلى المدينة كان تيتوس يدعّم حصاره. بدأت المجاعة تفعل فعلها في المحاصَرين الذين كانوا يبدون مقاومة ضارية. وبعد أن احتل أنطونيا وأحرق الأبواب الخارجية (8 آب/أغسطس) هاجم الهيكل وأضرم فيه النيران فالتهمته بكامله (28 آب/أغسطس 70). وبعد أن أحرق الرومان المدينة وأعملوا السيف في سكانها سيطروا على أعلى المدينة حيث كان يلجأ سمعان بارجيورا ويوحنا جيسكالا. ودمرت المدينة باستثناء الأبراج الثلاثة لقصر هيرودس (هيپيكوس، فصائيل ومريام) وقسم من السور. وأرسل السكان، الذين نجوا من المذبحة، إلى المناجم أو أعدوا لمعارك حَمَلة الخناجر.

وبعد ذلك بقليل سافر تيطس إلى روما ليحتفل بانتصاره (71) وترك لحاكم اليهودية الجديد لوسيلوس باسوس مهمة تدمير القلاع الأخيرة: هيروديوم، ماكيرونت ومسّادة.

وقد دافع عن هذا الحصن بعنف السفاحون (Sicaires) بقيادة إليعازر بن يائير، أحد أحفاد يهوذا الجليلي.

وأخيراً عندما شنت الجيوش الرومانية هجومها الأخير بقيادة فلاڤيوس سيلڤا حاكم اليهودية فضل آخر المدافعين أن يقتل بعضهم بعضاً على أن يستسلموا (4 نيسان/ إبريل 74).

وكان تحطيم «الهيكل الثاني» سنة 70 دليلاً على نهاية الدولة العبرية في العهد القديم. وأصبحت اليهودية ولاية رومانية متميزة من سوريا وكانت الفرقة العاشرة في تصرف حاكمها. حل مجلس الشيوخ، دمر الهيكل وتوقف الاحتفال بالعبادة القومية التي تقوم على تقديم الذبائح.



خاتمة

إن سقوط أورشليم سنة 70 لا يعني زوال الشعب العبراني من التاريخ:

- فالسامريون الذين بددتهم الحرب اليهودية جماعات كبيرة ظلوا في السامرة واستقروا في مدن عديدة من السهل الساحلي في حين أن جبل جريزيم ظل يلعب دوراً رسمياً «كمكان مقدس» سامري حتى سنة 484 ب.م. ولا يزال بعض مئات من هذه الجماعة مستمرة حتى يومنا هذا.

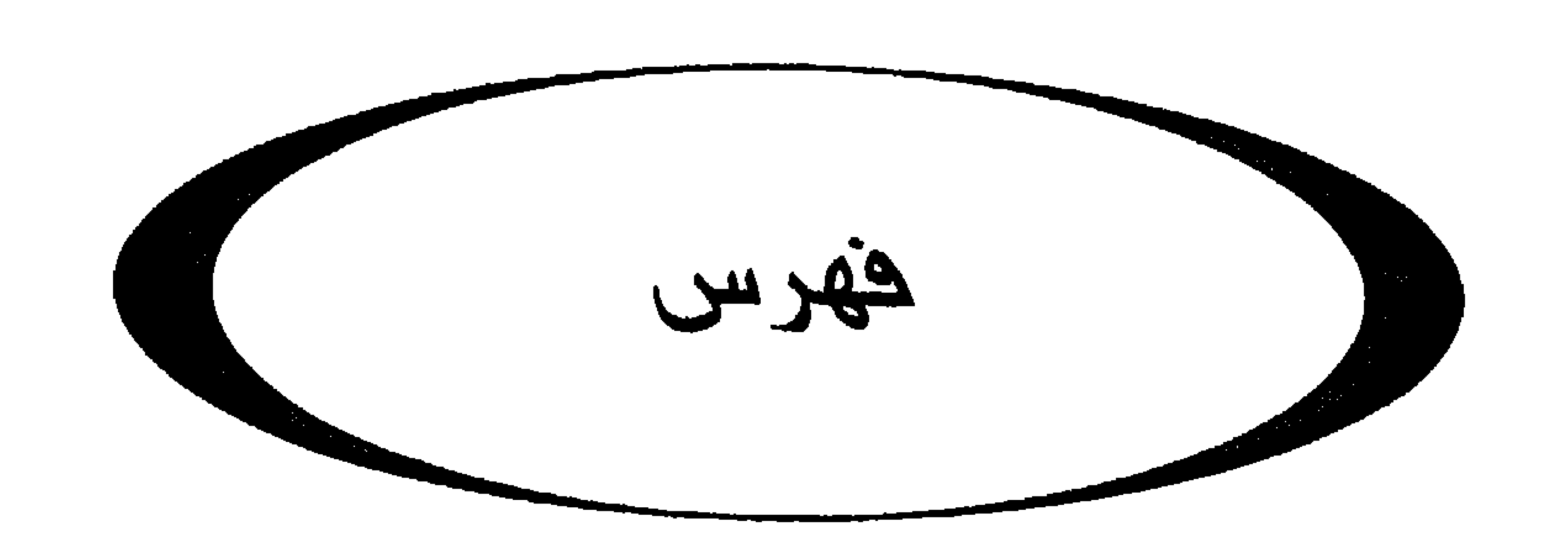
- والصدوقيون الذين ذبح قسم منهم في الحرب الأهلية خسروا كل نفوذ بعد تدمير الهيكل الذي كان يؤمن لهم الثروة والسلطة السياسية.

- والأسينيون الذين أسهموا في الثورة إسهاماً فاعلاً قد انقرضوا على ما يبدو، بعد سنة 70. وظل نفوذهم يسري ربما في بلاد الشتات (مصر؟ آسيا الصغرى؟) حيث أثر في بعض الجماعات المسيحية.

- وقضي على أكثر الزيلوت في معارك 66ـ74؟ وثار خلفاؤهم سنة 132 بقيادة باركوخبا (=باركوسيبا) الذي كان يعتبره الحاخام أكيبا (Aqiba) مسيحاً. وقد سحقتهم جيوش الإمبراطور هدريانس (135) بعد مقاومة ضارية.

- والناصريون الذين لجأوا إلى فيلا (Pella) أثناء الحرب اليهودية عادوا بعدها إلى أورشليم وعلى رأسهم ذرية عائلة يسوع الناصري: سمعان بن كلاوپا وأحفاد يهوذا (التاريخ الكنسي III، XX_XI). كانوا فقراء مضطهدين على الأرجح من قبل أنصار بارخوبا سنة 132ـ135 فهؤلاء اليهود المتنصرون استوعبتهم شيئاً فشيئاً الكنيسة المسيحية ـ الوثنية في فلسطين كما في بلاد الإنتشار.

ـ والفريسيون أعادوا تنظيمهم بسرعة بعد سنة 70 وأسس يوحانان بن زاكاي، أحد تلامذة هلّيل، مدرسة ومجلساً كبيراً في يمنية (Jamnia) بالقرب من يافا، حل هذا المجلس عملياً محل مجلس الشيوخ فأثبت قانون الكتب المقدسة العبرانية وأعاد تنظيم اليهودية حول تعاليم التوراة وممارستها. وأصبحت اليهودية، ما بعد 70، في فلسطين كما في بلاد الإغتراب، وخاصة في بابل، اليهودية الفريسية بشكل أساسي.


فهرس

عويدات للنشر والطباعة 1013, 1998

ANDRÉ LEMAIRE

HISTOIRE DU PEUPLE HÉBREU

Traduction arabe
de
Antoine A. HACHEM

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Liban

زدني علماً
235

تاريخ الشعب العبري

يشكل تاريخ شعب من الشعوب مجموعة تكون على درجة من التعقيد والتنوُّع بحيث لا يستطيع المؤرخ أن يعبِّر عن كل ما فيها من غنى، ويتوقف عمله بالأحرى على إبراز محاوره الأساسية التي تكشف عن سِماته العميقة. ومن الأهمية بمكان، بعد التحدث عن تسلسل القادة والحكومات، أن يتحدث عن المؤسسات السياسية والمشاكل الاقتصادية وعن الثقافة الخاصة بهذا الشعب. وهذا ما سنجهد في القيام به بقدر ما تسمح به لنا المصادر.

يظل كتاب التوراة بأسفاره الإثنين والعشرين المصدر الأساسي لتاريخ الشعب العبري. وسنأخذ في الحسبان أيضاً، بالنسبة إلى العصور القديمة، المعطيات الأثرية والكتابات السامية والأكادية والمصرية في شمالي ـ غربي البلاد. يلجأ المؤرخون التقليديون، منذ العصر الفارسي، إلى وثائق لا يستهان بها. وباستطاعتنا أن نضم إليها، فيما يخص المرحلة الأحدث عهداً، أعمال المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسف وأعمال فيلون الإسكندري والكتابات المنحولة والنقوش المزيفة؛ كما أننا نضيف إليها نصوص قمران والعهد الجديد والتلمود.

EDITIONS OUEIDAT
B.P. 628 Beyrouth